الأناجيل الأربعة ورسائل بولس ويوحنا تنفي ألوهية المسيح كما ينفيها القرآن



بقـلـم :

سـعــد رســتـم

ماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة البنجاب (لاهور) ـــ ماجستير في التفسير و الحديث من الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماجستير فلسفة في الدراسات الإسلامية من جامعة العلامة إقبال المفتوحة (إسلام آباد / باكستان)

إسلام آباد / باكستان: 1417 هـ. ـــ 1997 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة و لا ولدا و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل و كبِّره تكبيرا، نحمده تعالى أن هدانا إلى دينه القويم و صراطه المستقيم، دين الإسلام و صراط التوحيد، و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين، حبيبنا و شفيعنا أبي القاسم محمد بن عبد الله الصادق الأمين، و على آله الطيبين الطاهرين و صحبه الأبرار الميامين أجمعين.

و بعد فمن المعلوم أن أحد أهم العقائد التي ترتكز عليها الديانة النصرانية، العقيدة بإلـهية السيد المسيح (على نبينا و عليه الصلاة و السلام)، و هذه العقيدة تشكل في الواقع أحد الاختلافات الأساسية بين النصرانية و الإسلام. فكما نعلم، يعلمنا الإسلام أن المسيح لم يكن إلا عبداً مخلوقاً لله عز و جل و رسولا نبيا كسائر الأنبياء من قبله، في حين تقرر العقيدة النصرانية أن المسيح هو الله تعالى نفسه، و بتعبير أكثر تفصيلا: هو شخص الابن من الذات الإلـهية: " الواحدة المؤلفة من ثلاثة أشخاص "! الذي تجسد و صار بشراً و جاء إلى هذا العالم بصورة إنسان مثلنا لكي يعيش بيننا ثم يتألم و يصلب حتى تكون آلامه و دمه المسكوب على الصليب و موته وسيلة لتكفير خطيئة البشر الأصلية التي ورثوها جميعا بالولادة عن أبيهم آدم، و يؤكد النصارى أن لا نجاة لأحد من الخلق إلا إذا آمن بإلـهية المسيح و بكونه الله المتجسد و اعتقد بأنه صلب و مات تكفيرا عن خطايانا.

و قد كنت أظن ـ مثل ما يظن أغلب المسلمين ـ أن الذي دعا و يدعو إخواننا النصارى إلى الإيمان بهذه العقيدة التي يصعب على العقل أن يستسيغها، لا بد أن يكون نصوصا صريحة من الأقوال و الأحوال التي تنسبها الأناجيل الرسمية للسيد المسيح عليه السلام، نصوص يبين المسيح لهم فيها

أنه إلـههم و ربهم و معبودهم الذي جاء بنفسه إلى هذا العالم لتخليصهم، و أن الله تعالى ثلاث آلهة و أن لا نجاة إلا بالتسليم بألوهية المسيح و بعبادته. إلى أن وقع بيدي لأول مرة الإنجيل أو بتعبير أدق العهد الجديد و ذلك في فرنسا عام 1979، عندما أهداه لي أحد الشباب الذي يقوم بالتبشير، فبدأت أقرأ منه و أتأمل بشكل خاص أقوال سيدنا المسيح عليه السلام، فإذا بي أفاجأ بنصوص يؤكد فيها المسيح بكل صراحة بشريته و إنسانيته، كالتي يقول فيها عن نفسه مرارا أنه ابن الإنسان أو أنه إنسان و رجل مرسل من الله، و نصوص تفيد عبادة المسيح لله عز و جل و صلاته له و دعائه إياه، و نص يرفض فيه المسيح أن يسميه تلميذه بالمعلم الصالح و يقول له: " لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحدٌ و هو الله "، و نصوص تذكر أن المسيح جاع و عطش و تعب و نام أو أن الشيطان يمتحنه ... و غير ذلك مما يتنافى تماما مع القول بألوهية المسيح و أنه الله المتجسد، علاوة على أنه لفت نظري أيضا أن المسيح إن سمى نفسه ابن الله فإنه اعتبر أيضا ـ في مواضع عديدة من الإنجيل ـ كل بارٍّ متَّقٍ لله، ابناً لله. و هو كذلك إن سمَّى الله تعالى أباه فإنه اعتبره أبانا جميعا أيضا في كثير من مواضع كلامه.....، و كانت قمة الاندهاش عندما طالعت قول المسيح ـ في أواخر إنجيل يوحنا ـ: " اذهبي إلى أخوتي و قولي لهم: إني أصعد إلى أبي و أبيكم و إلـهي و إلـهكم! "مصرحا بأن الله تعالى إلـهه.

فدفعني هذا إلى أن أبدأ من جديد قراءة متمعنة للأناجيل، و قد أعياني البحث عبثا أن أجد عبارة واحدة صريحة لسيدنا المسيح عليه السلام نفسه يدعو فيها أتباعه للإيمان بألوهيته و بلزوم عبادته، أو يصرِّح فيها لهم بأنه رب العالمين و إلـه الخلائق أجمعين المتجسد الذي انقلب بشرا، أو يصرح لهم فيها بعقيدة التثليث التي هي الركيزة الأساسية للنصرانية، فلم أجد شيئا من ذلك، بل كل ما وجدته كان نصوصا تعاكس

ذلك تماما، أي تؤكد عبودية المسيح لله عز و جل و أنه لا يعدو كونه نبيا خادمِا لله و رسولا لله تعالى متِّبعا أمره، منفِّذا مشيئته و مبلِّغا رسالاته.

نعم لما وصلت للإنجيل الرابع قرأتُ في افتتاحيته ـ التي هي بالطبع ليوحنا و ليست من كلام المسيح عليه السلام ـ عبارة توحي بتأليه المسيح، و ذلك حين قال: " و كان الكلمة الله " و يقصد بالكلمة المسيح، لأنه قال فيما بعد: " و الكلمة صار جسدا " فالنتيجة أن الله تعالى صار جسدا، تعالى الله عن ذلك.

و كذلك لدى مطالعتي لرسائل بولس الملحقة بالأناجيل وقفت على ثلاث أو أربع عبارات يبدو فيها لأول وهلة أنه يرفع المسيح لمصاف الإلـه، أو يصفه بأوصاف ملكوتية إلـهية....

فقلت في نفسي لا بد أن هذه العبارات هي البذرة و الأساس لفكرة تأليه المسيح في النصرانية، لكني تساءلت في نفسي مستغربا: كيف لا يتفكر إخواننا النصارى الذي يطالعون الأناجيل، فيسألون أنفسهم: هل من المعقول أن يسكت نبيهم و معلمهم الأول المسيح عليه السلام عن بيان ما هو أساس الدين و ركنه الركين و شرط النجاة فيه، الذي هو ـ حسب اعتقادهم ـ الإيمان بألوهية المسيح و بأنه الله المتجسد و بالتثليث، و تركَ بيان هذه الحقائق الخطيرة لمن بعده؟! و متى كان من الجائز بالعقل و المنطق أن يكتم النبي أو الرسول أساس الدين و الهدف الذي لأجله بعث و يترك بيان ذلك لمن جاؤوا بعده؟! أفلا يدل عدم دعوة المسيح عليه السلام نفسه لتلك العقائد أنها ليست من رسالته بل هي تفسيرات بعدية دخيلة؟ و على أي حال، فإن فكرة تأليف كتاب يجمع أقوال المسيح عليه السلام التي تنص على بشرية المسيح و عبوديته لله عز و جل ـ في الأناجيل الحالية ـ بدأت تراودني منذ ذلك الوقت و لكن

صوارف الزمان حالت بيني و بين ذلك، و مضت الأعوام إلى أن وقفت منذ أربع سنوات أثناء دراستي بالجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد (في باكستان) على كتاب جليل لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي (رحمه الله) عنوانه: "الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل" يطرح نفس الفكرة التي كنت توصلت إليها من قبل، و لكن بلغة قديمة و أسلوب فلسفي معقَّد نوعا ما بالنسبة للقارئ المعاصر، فتجدَّدَت لديّ الرغبة في تأليف كتاب جامع في هذا الموضوع، ساعد على ذلك ما اطلعت عليه أكثر في هذا الباب من كتاب " إظهار الحق " للعلامة رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الكيرانوي العثماني (رحمه الله) و من كتاب " التوحيد و التثليث " للشـيخ محمود جـواد البـلاغي (رحمه الله) و كذلك من أشرطة و كتيبات الداعية الجنوب أفريقي الشهير أحمد ديدات (حفظه الله)، فبدأت أدون فعلا كلما تيسر لي من المواد في هذا الباب، و اجتمعت لدي نصوص كثيرة من الأناجيل و من رسائل العهد الجديد تنادي بأعلى صوتها بالتوحيد الخالص، و أن المسيح عبد الله و رسوله، و بشرٌ نبيٌّ، و تنفي عنه الألوهية بنفيها لمستلزماتها بكل وضوح و صراحة، و نصوص أخرى كذلك تفيد في إبطال ما يتمسك به المسيحيون من الأدلة من الأناجيل على تأليه المسيح، و خرج من كل ذلك هذا الكتاب الجامع الذي تجده أخي القارئ بين يديك، و الذي يتألف من تمهيد و ثلاثة فصول: أما التمهيد فيتضمن شرح عقيدة تأليه المسيح لدى مختلف الفرق النصرانية و تطورها عبر التاريخ، و أما الفصل الأول فيتضمن ذكر النصوص الإنجيلية النافية لإلـهية عيسى و المثبتة لعبوديته، في حين يتضمن الفصل الثاني إبطال الشبهات التي يستند إليها المؤلهون لعيسى من الأناجيل و ذلك بواسطة نصوص الأناجيل نفسها، و الفصل الثالث أضفته لاحقا و عرضت فيه دراسة تحقيقية لأقوال القديسين بولس و يوحنا حول طبيعة المسيح و حقيقة علاقته بالله، حيث بيَّنت فيه أنهما، خلافا لما يظنه الكثيرون، ما كانا

يعتقدان و لا يعلمان أبدا أن المسيح هو الله ذاته، بل على العكس، تطفح رسائلهما بعبارات تؤكد مخلوقية المسيح و عبوديته لله الآب و أن الله تعالى إله المسيح و سيده و أن الآب متفرد لوحده بالألوهية و أن المسيح عبد الله و رسوله الخاضع لأمره التابع لحكمه، أما تلك العبارات الثلاث أو الأربع لبولس التي يبدو منها تأليه المسيح، فبينت أن الأمر لا يعدو ترجمة عربية خاطئة و غير دقيقة للأصل اليوناني، تبدل فيه موضع النقطة و الفاصلة أو العطف، و هو ما أشارت إليه الترجمات المراجعة و الدقيقة الفرنسية أو الإنجليزية الحديثة، كما بينت بشهادة قرائن عديدة أن عبارة " الربّ " التي يطلقها بولس و سائر مؤلفي الرسائل القانونية على المسيح لا يقصد بها الله الخالق الرازق، بل هي تعبير مجازي يقصد بها السيد المُطاع و المعلم المرشد، كذلك فنَّدت الاستدلال بافتتاحية إنجيل يوحنا على تأليه المسيح و بينت مقصود يوحنا الحقيقي من عباراته.

و كـنت أرغب أن ألحق الفصـول الثـلاثة بفصل رابع أبين فيه الـعـوامل و الأسباب التي أدت إلى دخول و انتشار فكرة التثليث و إلـهية المسيح في الكنيسة المسيحية، و المصادر الحقيقية لعقيدة التجسد هذه (أي تجسد الله و ظهوره بشكل إنسان) و لكنني وجدت أن هذا يحتاج لكتاب مستقل، و فعلا شرحت ذلك على أتم تفصيل في كتابي الآخر الذي سميته: " أساطير التجسد في الشرق الأدنى القديم و أثرها في المسيحية " و هو ترجمة لفصلين من كتاب لبروفسور أمريكي حول هذا الموضوع، فمن أراد أن تكتمل معرفته بالموضوع فعليه مطالعة ذلك الكتاب.

هذا ما أردت توضيحه في هذه المقدمة، أسأل الله التوفيق و أن ينفع بهذا العمل و أن يجعله خالصا لوجهه، و ليس قصدي من الكتاب التهجُّم على إخواننا النصارى، الذين تربطنا بهم رابطة الوطن الواحد و البلد الواحد و المصير الواحد، بل تربطني ببعض منهم صداقةُ طفولةٍ و زمالة

دراسةٍ و جيرة حيّ و ذكريات عزيزة، أو إثارة الفتنة بالطعن في دينهم، حاشا و كلا، كيف و دينهم في عقيدتنا دين سماوي من عند الله تعالى ربنا و ربهم، فيه أسمى و أرفع التعاليم، و إنما الكتاب حوار هادئ أدعوهم فيه للعودة لأناجيلهم نفسها ليروا فيها عبودية المسيح لله تعالى، فيتركوا الغلو بالمسيح، الذي قام به بعض أسلافهم في ماضي الزمن، و يعودوا لوحدانية الله النقية الخالصة و إفراد ذاته بالإلـهية دون مشاركة أي ذات أو شخص آخر له فيها، ذلك التوحيد الذي كان عين و لب دعوة سيدنا المسيح عليه السلام و ذلك عملا بقوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون}، هذا من جهة، و من الجهة الأخرى، الكتاب موجه أيضا للقارئ المسلم، خاصة أولئك الذين هم عرضة لدعايات و تأثير المبشرين، ليزدادوا يقينا بصحة ما أخبر به القرآن الكريم عن المسيح و رسالته بأنه عبدٌ رسولٌ أمرَ الناس بعبادة الله ربه و ربهم، لا أكثر.   إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب، و الحمد لله رب العالمين.

سعد رستم

حلب ـ محرم الحرام ـ 1414 هـ.ق.

ملاحظة : من المعلوم أن للكتاب المقدس BIBLE ترجمات مختلفة إلى اللغة العربية و قد يجد القارئ اختلافا بين ألفاظ الشواهد التي ذكرتها و ما يقابلها في النسخة التي عنده، و السبب هو اختلاف الترجمات، لذلك ينبغي التنويه هنا بأن الأصل في الشواهد التي أنقلها من الكتاب المقدس سواء من العهد القديم Old Testament أو العهد الجديد New

Testament منه، أنها منقولة عن الترجمة العربية البروتستانتية، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (بيروت 1984)، و قد اخترتها نظرا لكونها أكثر الترجمات العربية انتشارا و تداولا، رغم أنها لا تخلو أحيانا من ركاكة في اللفظ بسبب الترجمة الحرفية عن الأصل اليوناني، فإذا نقلت من أي ترجمة أخرى لغرض ما كالمقارنة أو عدم وضوح الترجمة العربية البروتستانتية، فإني أشير للترجمة المنقول عنها في الحاشية، و عادة ما أنقل في مثل هذه الحالات الاستثنائية عن الترجمة العربية الكاثوليكية الحديثة للكتاب المقدس التي قامت بها الرهبانية اليسوعية، و نشرتها دار المشرق (بيروت 1989) و هي تتميز بفصاحة التعبير و سلاسته و قربه من اللغة العربية الحديثة بالإضافة لحواشيها المفيدة و كونها ترجمة أدق و أنقى من الترجمة البروتستانتية، لكنها غير متداولة كثيرا، أو أنقل عن الترجمتين الحديثتين المراجعتين الفرنسية أو الإنجليزية للكتاب المقدس.

تمهيد

عقيدة إلـهية المسيح لدى فرق النصارى المختلفة و تطورها عبر التاريخ

يقـرّر دستور الإيمان المسيحي الذي أقرته كنيسة روما العامة، بناء على قرار مجمع نيقية المسكوني للأساقفة عام 325 م. أن :

يسوع المسيح (هو) ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مسا و للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر و من أجل خلاصنا، نزل من السماء و تجسَّد من الروح القدس و من مريم العذراء و

تأنَّس و صُلِب عنَّا على عهد بيلاطس البنطي و تألم و قبر و قام في اليوم الثالث "[1] .

تلك هي عبارة دستور إيمان النصارى بالمسيح بحروفـها، و هي ـ كما نرى ـ صريحة في النص على إلـهية المسيح و أنه إله حق غير مخلوق ـ أي أزلي بلا بداية ـ و أنه مساو للآب في جوهريته: أي في ألوهيته.

لكن دستور الإيمان هذا، حسب ظاهره، يؤدي للقول بتعدد الآلهة، باعتباره يثبت الغيرية بين الآب (الله) و الابن (المسيح) من جهة، مع تأكيده بنفس الوقت على إلـهية كل منهما و تساويهما في الألوهية.

إذن صار عندنا إلـهان اثنان! و هذا يتناقض بظاهره مع إيمان المسيحية القاطع بوحدانية الله، لذا لا بد من تفصيل تلك العقيدة المجملة، و بيان شرح مختلف فرق النصارى لها، لتتضح حقيقة ما يعتقده إخواننا النصارى حول المسيح و علاقته بالله عز و جل حسبما جاء في كتب عقائدهم و تقريرات لاهوتييهم، فنقول:

يعتقد الجمهور الأعظم من النصارى أن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاث، و الأقنوم لفظة يونانية تعني الشخص Person، و هذه الأقانيم أو الأشخاص الثلاث هي: شخص الآب، و هو الخـالق لكل شيء و المالك و الضابط للكل، و شخص ابنه، المولود منه أزلا المساوي لأبيه في الألوهية و الربوبية لأنه منه، و شخص الروح القدس[2] ، و هذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر و الإرادة و المشيئة، إلا أن هذا لا يعني أنها شخص واحد بل هم أشخاص ثلاثة، كل واحد منهم إله كامل في ذاته غير الآخر، فالآب إله كامل، و الابن إله كامل غير الآب، و روح القدس أيضا إله كامل غير الآب و الابن، و لكن مجموع الثلاثة لا يشكل ثلاث آلهة ـ كما هو مقتضى

الحساب! ـ بل يشكل إلـها واحدا، و يعترفون أن هذا لا سبيل لفهمه و إدراكه بالعقل و يسمونه "سرّ التثليث"ـ

ثم يعتقدون أن الأقنوم الثاني لله، أي أقنوم الابن، هو الذي تجسد و صار إنسانا حقيقيا، بكل ما في الإنسانية من معنى، و هو المسيح المولود من مريم العذراء، فالمسيح في اعتقادهم إله إنسان، أي هو بشر حقيقي مثلنا تماما تعرض له جميع أعراض الضعف و الاحتياج البشرية، و هو في عين الحال إله قادر كامل الألوهية، و يسمون هذا بـ " سر التجسد ".

و هكذا، فالمسيح، حسب تفسير قانون الإيمان المسيحي الذي تقرر في مجمع خلقيدونية سنة 451 م.، هو شخص واحد ذو طبيعتيـن، طبـيعة إنسـانية (ناسوت) و طبيعة إلهية (لاهوت) فهو إله بشر.

و نتيجة هذه العقيدة أن يكون عيسى المسيح عليه السلام ـ في نظرهم ـ شخص واحد هو خالق و هو نفسه مخلوق، رازق و مرزوق، قديم وحادث! معبود وعابد، كامل العلم و ناقصه، غني و محتاج!...الخ

أقول: و لو كانت هذه الصفات المتناقضة لشخصين اثنين اتحدا بمظهر واحد لكان هناك مجال لفهم ما يقولون، لكن الذي يعسر على العقل فهمه بل يستحيل فهمه و قبوله عقلا هو أن تكون هذه الصفات لشخص واحد و ذات واحدة.... لأن هذا بمثابة أن نقول أن هذا الشكل مربع و دائرة بنفس الوقت، أو موجود و معدوم بنفس الوقت؟! لكن على أي حال الكنيسة الغربية تؤمن بذلك و تقر بأن هذا لا سبيل للعقل البشري القاصر أن يفهمه و يدركه و لذلك تعتبره سرا من أسرار الله و تسميه، كما قلنا، بـ " سر التجسد ".

ما تقدم كان عقيدة جمهور المسيحيين أي: الروم الكاثوليك (اللاتين) أو الكنيسة الغربية التي رئاستها في روما، و الروم الأرثوذكس، أي الكنيسة الشرقية اليونانية الأورثوذكسية التي رئاستها في القسطنطينية (و التي انفصلت عن الكنيسة الغربية عام 879 م.)، و البروتستانت بفرقهم المختلفة من أنجليكان ولوثريين و إنجيليين و غيرهم... الذين خرجوا من بطن الكنيستين السابقتين في القرن السادس عشر الميلادي و ما تلاه، لكن هناك طائفتين قديمتين من النصارى لم تعترفا أبدا بقرار مجمع خلقيدونية المذكور، الذي نص على أن المسيح شخص واحد في طبيعتين، و هما: النساطرة أتباع نسطوريوس و اليعاقبة أتباع يعقوب البرادعي.

أما النساطرة ـ و هم أقلية قليلة العدد تتوطن حاليا شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا و شمال العراق و عدد من المناطق الأخرى و يسمون كذلك بالآشوريين ـ فهم يميزون في المسيح بين شخصين: شخص عيسى البشر المولود من مريم العذراء الذي هو إنسان بشر محض، و شخص الله الابن، أو ابن الله الذي هو إله كامل، المتحد بعيسى الإنسان، حسب زعمهم، فالذي ولد من مريم العذراء هو عيسى الإنسان و ليس الله، و لذلك رفضوا قبول عبارة " مريم والدة الله "، كما أن الذي صُلِبَ ـ في اعتقادهم ـ و تألم و مات، لم يكن الله الابن، بل عيسى الإنسان البشر، و الحاصل أن المسيح في اعتقادهم شخصيتان متمايزتان لكل شخصية طبيعتها الخاصة: البشرية المحضة لعيسى الناصري المولود من مريم العذراء، و الإلهية المحضة لابن الله المتحد بعيسى في اعتقادهم.

و على النقيض من ذلك تماما الطائفة الأخرى و هم اليعاقبة، الذين يرون أن عيسى المسيح شخص واحد فقط، لا شخصان، و ليس هذا فحسب، بل هذا الشخص الواحد ذو

طبيعة واحدة أيضا، و لذلك يُسمَّوْن أيضا بالمونوفيزيين، أي القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، فاعتقادهم هو أن: أقنوم الابن من الله تجسد من روح القدس و مريم العذراء فصيَّر هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية، أي صار الله (الابن) المتجسد، طبيعة واحدة من أصل طبيعتين، ومشيئة واحدة و شخصا واحدا. و بعبارة أخرى: المركز المسيّر و الطبيعة الحقيقية لعيسى المسيح الذي ولد من مريم هي الألوهية المحضة، فهو الله عينه، أما بشريته فهي مجرد لباس فانٍ في إلـهيته. فلذلك الله تعالى عندهم هو بذاته الذي وُلِدَ من مريم العذراء، لذا فهي والدة الله، و الله نفسه هو الذي عُذِّب و تألم و صلب و مات! ثم قام بعد ثلاثة أيام من قبره حيا. تعالى الله عن ذلك علوَّاً كبيراً.

قلت: و في هؤلاء جاء قوله تعالى: { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم و أمه و من في الأرض جميعا و لله ملك السموات و الأرض و ما بينهما يخلق ما يشاء و الله على كل شيء قدير } المائدة /17. و قوله سبحانه كذلك: { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، و قال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي و ربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار وما للظالمين من أنصار } المائدة / 72. و بهذا المذهب اليعقوبي تدين الكنيسة القبطية في مصـــر وكنيسة الحبشة التابعة لها، كما هو مذهب السريان الأرثوذكس في بلاد الشام، و مذهب الكنيسة الأرمنية الغريغورية.

أما مذهب الجمهور الأعظم فهو الذي قال الله تعالى في شأنه: { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة و ما من إله إلا إلـه واحد، و إن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم } المائدة / 73.

و الحاصل أن جميع الفرق المسيحية تتفق على أن المسيح بشرٌ وإلهٌ بنفس الوقت! و إنما تختلف عن بعضها في مدى تأكيدها و إبرازها لأحد الجانبين الإلهية أو البشرية في المسيح، فاليعاقبة يؤكدون الجانب الإلـهي أكثر و على عكسهم النساطرة الذين يبرزون أكثر الجانب البشري في حين يطرح الجمهور الأعظم رؤية متوازية و متعادلة للجانبين الإلـهي و البشري دون ترجيح أي منهما على الآخر.

بهذا نكون قد عرفنا عقيدة مختلف الفرق النصرانية بإلهية المسيح و كيفية تفسيرهم لهذه العقيدة. لكن هل آمن جميع المسيحيين دون خلاف بهذه العقيدة؟ هذا ما تجيب عنه الفقرة التالية :

- عقيدة تأليه المسيح بين الرفض و القبول في الأوساط المسيحية عبر التاريخ :

يعترف جُلُّ المؤرخين المسيحيين، أن هذا الاعتقاد بإلهية المسيح لم يصبح عقيدة مستقرة و سائدة بين المسيحيين إلا بعد انقضاء عهد الحواريين و عهد التلاميذ الأوائل للمسيح عليه السلام، أي بعد انقضاء قرن على الأقل على انتقال المسيح و رفعه، أما قبل ذلك، أي في القرن الأول لبعثة المسيح، فكانت مذاهب الناس في المسيح لا تزال متشعبة، فغالبية اليهود المعاصرين له أبغضوه و أنكروا رسالته من الأساس و اعتبروه ساحرا و دجالا ـ حاشاه من ذلك ـ و صرفوا جهودهم لمحاربة أتباعه و القضاء على دعوته، و في المقابل آمن به عدد من يهود فلسطين ممن تجرد لله تعالى و كان تقيا مخلصا، و رأوا فيه المسيح المبشر به في الكتب المقدسة السابقة، و من هؤلاء الحواريون، الذين تدل كتاباتهم و رسائلهم أنهم كانوا يرون في المسيح نبيا بشرا، و رجلا أيده الله تعالى بالمعجزات الباهرة ليرد الناس إلى صراط الله الذي ضلوا عنه و ابتعدوا عنه، و ليعلن بشارة

الله تعالى بالرحمة و الغفران و الرضوان للمؤمنين التائبين... كما وجد في ذلك القرن الأول و ما بعده يهود تشبعوا بأفكار الفلسفة اليونانية سيما الأفلاطونية الحديثة منها وتشربت بها قلوبهم فنظروا للمسيح و لارتباطه بالله عز و جل بمنظار ما كانوا مشبعين به من تلك الفلسفة حول الإلـهيات، و ما تعلمه حول "اللوجوس" أي العقل الكلي الذي ترى فيه أول ما فاض عن المبدأ الأول ـ أي الله ـ فاللوجوس هو الوسيط بين الله في وحدته و بساطته المتناهية و بين العالم المتكثر، و به و فيه خلق الله العالم و الكائنات.... فطابقوا بين المسيح و اللوجوس، و كل هؤلاء كانوا يرون المسيح مخلوقاً لِلّه، فلم يقولوا بإلهية المسيح و لا ساووه مع الآب في الجوهر.

و أخيرا كان هناك المؤمنون الجدد من الأمميين (الوثنيين) و غالبهم آمن بدعوة التلاميذ بعد رحلة المسيح، و هؤلاء كانوا متشبعين بثقافة عصرهم الوثنية الهيلينية التي تنظر للعظماء من أباطرة أو قادة فاتحين أو فلاسفة عظام، على أنهم أنصاف آلهة أو أبناء آلهة هبطت لعالم الدنيا و تجسدت، لخلاص بني الإنسان و هدايتهم.... فصار كثير منهم ينظرون لشخصية المسيح بنفس المنظار، خاصة أنه كان يعبر عن المسيح في لغة الأناجيل بابن الله، فأخذوا البنوة على معناها الحرفي لوجود نظير لذلك في ثقافتهم الوثنية، و رأوا فيه ابن الله الحقيقي الذي كان إلها فتجسد و نزل لعالم البشر لخلاصهم... و لاقت هذه العقيدة رواجا لدى العوام الذين يعجبون بالغلو في رفع مقام من يقدسونه و يؤمنون به و يرون ذلك من كمال الإيمان به و المحبة له، و قد لعبت عدة عوامل سياسية و ثقافية و اجتماعية و حتى لغوية ـ ليس هنا موضع بسطها ـ لصالح الاتجاه الوثني الأخير في النظر لشخصية المسيح، فساد و انتشر، و شيئا فشيئا صار هو الأصل و صارت مخالفته هرطقة و خيانة لحقيقة المسيح، و صار الموحدون، أي الأتباع الحقيقيون للمسيح،

فئات ضئيلة عرضة للاضطهاد، يُنْظَر إليها على أنها مبتدعة ضالة!

لكن هذا لا يعني أن الموحدين انتهوا تماما، بل إن التاريخ و الوثائق تثبت أنه و جدت و لا تزال، في كل عصر من عصور تاريخ المسيحية و حتى يومنا هـذا، أعداد غير قليلة من علماء النصارى و عامتهم ممن أنكر تأليه المسيح ورفض عقيدة التجسد و التثليث مؤكدا تفرد الله الآب لوحده بالألوهية و الربوبية والأزلية، و أن المسيح مهما علا شأنه يبقى حادثا مخلوقا، هذا و قد حظي أولئك الأساقفة أو البطارقة الموحدون بآلاف بل عشرات آلاف الأتباع والمقلدين، و ليس ههنا مجال لذكر و استقصاء أسماء كل من نقله التاريخ لنا من أولئك الموحدين الأعلام، و من رام الاطلاع المفصَّل على ذلك فعليه بالكتاب القيِّم المسمى: " عيسى يبشِّر بالإسلام " للبروفيسور الهندي الدكتور محمد عطاء الرحيم، و الذي ترجمه إلى العربية الدكتور (الأردني) فهمي الشما، فقد ذكر فيه مؤلفه الفرق النصرانية الموحدة القديمة و تحدث في فصل كامل عن أعلام الموحدين في النصرانية، استوعب فيها أسماءهم و تراجمهم و كتاباتهم و دلائلهم على التوحيد و أحوالهم و ما لاقوه من اضطهاد و محاربة في سبيل عقيدتهم، ونكتفي هنا بإشارة سريعة لأسماء أشهر الفرق و الشخصيات النصرانية الموحدة البارزة عبر التاريخ: فقد ذكرت المراجع التاريخية النصرانية، التي تتحدث عن تاريخ الكنيسة، أسماء عدة فرق في القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تنكر التثليث و التجسد و تأليه المسيح و هي: فرقة الأبيونيين، و فرقة الكارينثيانيين، و فرقة الباسيليديين و فرقة الكاربوقراطيين، فرقة الهيبسيستاريين، و فرقة الغنوصيين.

و أما أشهر القساوسة و الشخصيات المسيحية الموحدة القديمة التي تذكرها تلك المصادر فهي :

¨ ديودوروس أسقف طرطوس.

¨ بولس الشمشاطي، و كان بطريركا في أنطاكية و وافقه على مذهبه التوحيدي الخالص كثيرون و عرفوا بالفرقة البوليقانية.

¨ الأسقف لوسيان الأنطاكي أستاذ آريوس (توفي سنة 312 م.)

¨ آريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية (250 ـ 336 م.) و قد صار له ألوف الأتباع عرفوا بالآريوسيين و بقي مذهبهم التوحيدي حيا لفترات زمنية طويلة و صار آريوس علما للتوحيد حتى أن كل من جاء بعده إلى يومنا هذا و أنكر التثليث و إلهية المسيح، يصمه رجال الكنيسة الرسميون بأنه آريوسي!!.

¨ يوزيبيوس النيقوميدي أسقف بيروت ثم نقل لنيقوميديا عاصمة الإمبراطورية الشرقية، و كان من أتباع لوسيان الأنطاكي و من أصدقاء آريوس.

أما أشهر الموحدين من رجال الدين و المفكرين المسيحيين المتأخرين فهم :

1) المصلح المجاهد الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس Michael Servitus (1151 ـ 1553): تأثر بحركة الإصلاح البروتستانتية لكنه خطا في الإصلاح خطوات جذرية و جريئة أكثر، فأعلن بطلان عقيدة التثليث و رفض ألوهية المسيح بشدة و كان يسمي الثالوث بـ" الوحش الشيطاني ذي الرؤوس الثلاثة!" و قام بحركة نشطة جدا في الدعوة إلى التوحيد الخالص، و قد اتهمته الكنيسة بالهرطقة و اعتقلته

ثم أعدمته حرقا. لكنها لم تستطع إعدام أفكاره وكتاباته التي انتشرت في وسط و شرق أوربا انتشار النار في الهشيم و صار لها عشرات الألوف من الأتباع و المؤيدين.

2) القسيس الروماني فرانسيس ديفيد Francis David (1510 ـ 1579): صار أسقفا كاثوليكيا أولا ثم اعتنق البروتستانتية ثم وصل في النهاية للتوحيد الخالص فأبطل التثليث و نفى ألوهية المسيح، و قد أوجدت أفكاره فرقة من الموحدين في بولونيا و المجر (هنغاريا) و أثرت أفكاره حتى في ملك هنغاريا الذي أصدر بيانا أمر فيه بإعطاء الموحدين حرية العقيدة.

3) اللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني Fausto Paolo Sozini (1539 ـ 1604): اشتهر باسم سوسيانوس Socianus، نشر كتابا إصلاحيا ينقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث و تجسد و كفارة و غيرها، ثم توصل للتوحيد الخالص و أخذ يؤكد عليه في كتاباته و رسائله و انتشرت تعاليمه في كل مكان و عرفت مدرسته أو مذهبه اللاهوتي باسم " السوسيانية "، أما مخالفوه فسموا أتباعه بـ " الآريانيين الجدد "(أي أتباع مذهب آريوس القديم). و بعد وفاته جمعت رسائله و كتاباته في كتاب واحد نشر في مدينة "روكوف" Rokow في بولندا، و لذلك أخذ اسم " كتاب العقيدة الراكوفية "، و قد تعرض أتباع السوسيانية لاضطهاد وحشي منظم منذ عام 1638 و حرق الكثير منهم أحياء أو حرموا حقوقهم المدنية و حرقت كتبهم، و في سنة 1658 خُـيِّرَ الناس بين قبول الكاثوليكية أو الذهاب للمنفى، فتوزَّع التوحيديون في أطراف أوربا و ظلوا فئات منفصلة لفترات طويلة، و قد لقيت السوسيانية رواجا عميقا في هنغاريا (المجر) ثم بولندا و ترانسلفانيا (إقليم في رومانيا) و انتشرت منها إلى هولندا ثم بريطانيا و أخيرا سرت للولايات المتحدة الأمريكية و كانت وراء نشوء الفرقة الشهيرة التي

تسمت باسم التوحيديين The Unitarians.

4) الأستاذ المحقق البريطاني جون بيدل John Biddle (1615 ـ 1662): يعتبر أبا مذهب التوحيد في إنجلترا، حيث قام بنشاط إصلاحي قوي و رائع في بريطانيا و نشر رسائله التوحيدية المدللة بأقوى البراهين المنطقية على بطلان إلـهية المسيح و بطلان إلـهية الروح القدس، و تفرد الله (الآب) وحده بالإلـهية و الربوبية، و قد تعرض هو و أتباعه لاضطهاد شديد و حوكم و سجن عدة مرات و توفي أخيرا و هو سجين بسبب سوء ظروف السجن و سوء المعاملة فيه و قد أثرت أفكاره في الكثيرين من متحرري الفكر في بريطانيا فآمنوا بها و من أشهرهم: السيد ميلتون Milton (1608 ـ 1674) و السيد إسحاق نيوتن Sir Issac Newton (1642 ـ 1727) العالم الفيزيائي الشهير، و أستاذ علم الاجتماع جون لـوك John Lock (1632 ـ 1704)، و كلهم ساهم بدوره في نقد عقائد و تعاليم الكنيسة المعقدة غير المفهومة كالتثليث و التجسد و إلهامية كل ما في الكتاب المقدس و... الخ بما كتبوه و نشروه من كتب و أبحاث و رسائل قيمة.

5) القسيس البريطاني توماس إيملين Thomas Emlyn (1663 ـ 1741): و كان من القساوسة البروتستانت المشايخية Presbyterian و نشر كتابا بعنوان: " بحث متواضع حول رواية الكتاب المقدس عن يسوع المسيح " بيَّن فيه بطلان القول بإلـهية المسيح و بطلان القول بتساويه مع الآب، فقبض عليه و اتهم بالهرطقة و نفي من بريطانيا لكنه رغم ذلك لم يتوقف عن دعوته للتوحيد التام، و نشر رسائله المدللة بالبراهين القوية من الكتاب المقدس، على نفي إلـهية المسيح أو إلـهية الروح القدس، و وجوب إفراد الله تعالى وحده بالعبادة و الصلوات، و تعتبر رسائله من أقوى و أحسن ما كتب في هذا الباب و كان عدد القساوسة

البريسبيتاريين Presbyterians الذين انضموا إليه و آمنوا بآراء آريوس و غيره من الموحدين في بداية القرن الثامن عشر الميلادي عددا لا يستهان به.

6) القسيس البريطاني ثيوفيلوس ليندسيTheophilos Lindsy (1723 ـ 1808): و كان منظم أول جماعة مصلين موحدة في إنجلترا، و كان يؤكد أنه ليست الكنائس فقط مكان عبادة الله، بل للإنسان أن يختار أي مكان لأداء الأدعية و الصلوات لله وحده فقط.

7) القسيس و العالم البريطاني جوزيف بريستلي Joseph Priestly (1733ـ 1804): و كانت أبعد كتاباته أثرا كتاب "تاريخ ما لحق بالنصرانية من تحريفات"و جاء في مجلدين. و قد أثار هذا الكتاب ثائرة أتباع الكنيسة الرسمية و أمروا بإحراقه فيما بعد، كما ألف كتابا رائعا آخر في دحض التثليث و إبطال ألوهية المسيح سماه " تاريخ يسوع المسيح ". هذا و قد اهتم بريستلي كذلك بالكيمياء و اكتشف الأوكسجين الأمر الذي أكسبه شهرة عالمية. و قد هاجر بريستلي في آخر عمره إلى أمريكا و أنشأ هناك الكنيسة التوحيدية Unitarian Church، و توفي في بوسطن.

8) القسيس الأمريكي ويليام إيليري تشانينغ William Ellery Channing (1780 ـ 1842): كان له الفضل في تطوير و إرساء دعائم الكنيسة التوحيدية في أمريكا و بريطانيا و التي يربو عدد أتباعها اليوم على المائة و الخمسين ألفا على الأقل، و ذلك بفضل مواعظه المؤثرة البليغة و خطبه القوية و محاضراته القيمة، هو و مساعده القسيس رالف والدو أيميرسن Ralph Waldo Emerson. و من الجدير بالذكر أن أفكار فرقة الموحدين Unitarians هذه تسربت إلى قادة الحركة التي قامت بتأسيس مدرسة اللاهوت العصرية في جامعة هارفورد الشهيرة في سنة

.1861

9) البروفيسور البريطاني المعاصر جون هيك John Hick أستاذ اللاهوت في جامعة برمنجهام و صاحب الكتاب الممتاز " The Myth of God Incarnate" أي: أسطورة الله المتجسد، الذي ترجم للعربية و لعدة لغات عالمية، و يضم مقالات له و للفيف من كبار الأساتذة و الدكاترة في اللاهوت و مقارنة الأديان في جامعات بريطانيا، محورها جميعا ما أشار إليه البروفيسور هيك نفسه في مقدمة كتابه ذاك حيث قال ما نصه:

[The writers of this book are convinced that another major theological development is called for in this last part of the Twentieth Century. The need arises from growing knowledge of Christian origins and involves a recognition that Jesus was (as he is presented in Acts 2.21) "A man approved by God " for a special role within the Divine purpose, and that the later conception of him as God Incarnate, The Second Person of the Holy Trinity living a human life, is a mythological or poetic way of expressing his significance for us.].

و ترجمته: [إن كُتَّاب هذا الكتاب مقتنعين بأن هناك، في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، حاجة ماسة لتطور عقائدي كبير آخر. هذه الحاجة أوجدتها المعرفة المتزايدة لأصول المسيحية، تلك المعرفة التي أصبحت تستلزم الاعتراف بعيسى أنه كان (كما يصفه سفر أعمال الرسل: 2/21): " رجل أيده الله " لأداء دور خاص ضمن الهدف الإلـهي، و أن المفهوم المتأخر عن عيسى و الذي صار

يعتبره " الله المتجسد و الشخص الثاني من الثالوث المقدس الذي عاش حياة إنسانية " ليس في الواقع إلا طريقة تعبير أسطورية و شعرية عما يعنيه عيسى المسيح بالنسبة إلينا].

و أخيرا فإن المتتبع لمؤلفات المحققين الغربيين المعاصرين حول تاريخ المسيحية و تاريخ الأديان و المطالع لما تذكره دوائر المعارف البريطانية و الأمريكية الشهيرة حول المسيح و تاريخ تطور العقيدة النصرانية والأناجيل، يجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء المفكرين و الكتَّاب العصريين لا تماري و لا ترتاب في كون غالب العقائد المعقَّدة للكنيسة النصرانية، لا سيما التثليث و التجسد و الكفارة و الأقانيم... ما هي إلا تعبيرات فلسفية بعدية عن رسالة المسيح التي لم تكن إلا رسالة توحيدية أخلاقية بسيطة. ولم يبق إلا القليل جدا من المفكرين و دكاترة اللاهوت و أساتذة علم الأديان الغربيين ممن لا يزال يرى أن عقائد الكنيسة الرسمية تلك تمثل بالضبط نفس تعاليم المسيح و تعكس حقيقة رسالته.

و في الختام أشير إلى أن كثيرا من الفرق النصرانية الجديدة، التي انشقت عن الكنيسة في قرننا هذا و الذي سبقه، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، تتفق على إنكار إلـهية المسيح و إنكار التثليث و رفض فكرة: الله ـ الإنسان، و تنظر لبنوَّة المسيح لله على معنى مجازي لا حرفي، و من أشهر هذه الفرق الجديدة التي قالت بذلك :

¨ فرقة الموحدين أو التوحيديين The Unitarians

¨ فرقة شهود يهْوَه Jehovah ’s Witnesses

¨ فرقة الروحيين The Spiritualist

¨ فرقة العلم المسيحي The Christian Science

مع العلم أن لكل واحدة من هذه الفرق عشرات الكنائس و عشرات آلاف الأتباع من مختلف الطبقات، لا سيما الطبقات المثقفة العصرية، في الولايات المتحدة الأمريكية و كثيرـ من بلدان العالم الأخرى.

----

[1] كتاب سوسنة سليمان في أصول العقائد و الأديان، لمؤلفه النصراني: نوفل أفندي نوفل، طبع المطبعة الأمريكية في بيروت عام 1922، ص 137.

[2] و الكاثوليك يعتبرون الروح القدس منبثقا من الآب و الابن كليهما في حين يعتبره الروم الأرثوذكس منبثقا من الآب فقط، أما البروتستانت فلا يتعرضون لشيء من ذلك بل يكتفون بالقول بألوهية الروح القدس و أنه أقنوم الذات الإلـهية الثالث.

الفصل الأول

النصوص الإنجيلية النافية لإلهية عيسـى و المثبتة لعبوديته

القسم الأول:

النصوص المؤكدة لوحدانية الله تعالى الذي في السماوات و أنه رب واحد و إله واحد لا يشاركه في ربوبيته و لا ألوهـيته أحد و لا تجوز العبادة إلا له وحده فقط :

لقد تضافرت على إثبات تلك العقيدة : أي توحيد الذات و توحيد الربوبية و الألوهية، و التي هي أساس جميع الرسالات السماوية، نصوص العهد الجديد و العهد القديم[1] ، و فيما يلي بيان بعض هذه النصوص :

أ ـ من العهد الجديد :

(1) جاء في إنجيل مرقس (12 / 28 ـ 32) أن أحد اليهود الكتبة سأل المسيح فقال:

" أيةُ وصيَّةٍ هي أوّل الكلّ؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، و تحب الرب إلهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل فكرك و من كل قدرتك، و هذه هي الوصية الأولى. و الثانية مثلها و هي: تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين. فقال له الكاتب: جيدا يا معلم قلت: لأن اللـه واحـد و ليـس آخـر سواه.."

و مثل هذا أيضا جاء في إنجيل لوقا و إنجيل متى، و فيه قال عيسى عليه السلام بعد بيانه لهاتين الوصيتين: " بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس [2] كلـه و الأنبياء "[3] .

و هذا يؤكد أن توحيد الربوبية و الألوهية أساس الشريعة و أساس دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام، و هذا ما صدقه القرآن في قوله عز وجل: } و لقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت { النحل / 36، و قوله سبحانه: } و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون { الأنبياء / 25.

و مما يجدر بالذكر التنبيه إليه أن سيدنا عيسى عليه السلام بين أنه لا وصية أعظم من هاتين الوصيتين، و أنهما أساس الناموس و أساس جميع دعوات الأنبياء، و بناء عليه، فلو كانت ألوهية عيسى عليه السلام و مشاركة الابن لله في ألوهيته، عقيدة حقة و الإيمان بها شرط ضروري للنجاة و الخلاص الأخروي ـ كما نص عليه دستور الإيمان الذي تقرر بمجمع نيقية ـ لبيـَّن عيسى عليه السلام ضرورة الإيمان بذلك و لم يكتمه، خاصة في هذا المقام الذي سئل فيه عن أهم الوصايا، فلما لم يذكر ذلك في هذا المقام، علم أن ألوهية عيسى ليست من وصايا الله عز و جل أصلا.

(2) و جاء في إنجيل يوحنا (17 / 1ـ 3):

" تكلم يسوع بهذا و رفع عينيه نحو السماء و قال: أيها الآب قد أتـت الساعة... و هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلـه الحقيقي وحدك و يسوع المسيح الذي أرسلته ".

قلت: ففي هذه الآية بين عيسى عليه السلام أن النجاة الأخروية تكمن في الإيمان بأن الآب هو الإلـه الحقيقي وحده، فلفظة وحدك صريحة قاطعة في انفراد الآب بالألوهية، و عدم مشاركة أي أحد آخر ـ و منهم المسيح الابن ـ له فيها. و يؤكد هذه أكثر عطف المسيح، كرسول لله تعالى، فيما يجب معرفته و الإيمان به. و هذا هو عين ماً قاله القرآن الكريم و هو وجوب الإيمان بالله وحده لا شريك له، و بأن المسيح رسول الله، على نبينا و عليه الصلاة و السلام.

(3) و جاء في إنجيل متى (4 / 8 ـ10) قصة امتحان الشيطان للمسيح :

" ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا و أراه جميع

ممالك العالم و مجدها. و قال له: أعطيك هذه جميعها إن
خررت و سجدت لي! حينئذ قال له يسـوع: اذهب يا
شيـطان. لأنه مكتوب: للرب إلـهك تسجد و إياه وحده
تعبد"[4] .

قلت: فسيدنا المسيح عليه السلام يؤكد على ما هو منصوص
في التوراة بأن الرب الإله وحده فقط الذي ينبغي و يصح
السجود له و عبادته، و بالتالي فلا تجوز العبادة و لا السجود
لأي شيء آخر غيره، سواء كان المسيح الابن أو العذراء الأم
أو الصليب أو أي كائن آخر سوى الله تعالى.

ثم إن نفس امتحان الشيطان لعيسى عليه السلام و
وسوسته له و محاولته إضلاله لأكبر دليل، في حد ذاته، على
بشرية عيسى المحضة و عدم إلـهيته، إذ ما معنى امتحان
الشيطان لله خالقه و ربه؟! و متى و كيف يكون الله تعالى
في حاجة للامتحان و الاختبار؟!

(4) و في إنجيل متى (19 / 16 ـ 17):

" و إذا واحد تقدم و قال: أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل
لتكون لي الحيوة الأبدية؟ فقال (المسيح) له: و لماذا
تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد و هو الله. و لكن
إذا أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا "[5] .

قلت: لقد نفى سيدنا عيسى عليه السلام بكل صراحة عن
نفسه الصلاح، و لعل المقصود به الصلاح الذاتي المطلق أي
القداسة الذاتية المطلقة، و أثبته لله الواحد الأحد فقط. و لا
أدل من هذا على نفيه الألوهية عن نفسه، و ليت شعري، إذا
كان عليه السلام لم يرض بأن يوصَفَ حتى بالصالح فقط،
فكيف يمكن أن يرضى بأن يوصَف بأنه إلـهنا و ربنا؟!

(5) و في إنجيل متى (23 / 8 ـ 10) يقول المسيح عليه السلام لأتباعه:

" و أما أنتم فلا تدعوا سيدي، لأن معلمكم واحد المسيح و أنتم جميعا أخوة، و لا تدعوا لكم أبـاً على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السماوات ".

قلت: المعروف أنه في لغة الإنجيل، كثيرا ما يعبر عن الله بالآب، و هنا كذلك، فقول عيسى عليه السلام " لا تدعوا لكم أبـا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات " يعنى ليس لكم إله إلا الله وحده الذي في السماوات، و هذا صريح في نفي ألوهية كل أحد ممن هو على الأرض، و يدخل في هذا النفي المسيح كذلك لكونه على الأرض.

و يؤكد ذلك أيضا الاقتصار على وصف المسيح بالسيد و المعلم و عدم وصفه بالإلـه.

هذا و فيما يلي نورد عبارتين للقديس بولس الذي يحتل مكانة عظيمة لدى إخواننا النصارى حيث تعتبر رسائله من إلهام الله تعالى و بالتالي لها منزلة الوحي المعصوم عندهم، لذا ألحقت رسائله الأربعة عشر بالأناجيل و اعتبرت جزءا من كتاب العهد الجديد:

(6) جاء في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (الإصحاح الثامن / 4 ـ 6):

"... فمن جهة أكل ما ذبح للأوثان نعلم أن ليس وثن في العالم و أن ليس إله آخر إلا واحدا. لأنه و إن وجد ما يسمى آلـهة سواء كان في السماء أو على الأرض، كما يوجد آلهة كثيرة و أرباب كثيرون. لكن لنا إلـه واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء و نحن به. و رب واحد يسوع المسيح الذي به

جميع الأشياء و نحن به. ".

قلت: فقوله " ليس إله آخر إلا واحداً " هو نفس الكلمة الطيبة و شعار التوحيد الخالد الذي بعث به جميع الأنبياء: " لا إله إلا الله ". و قوله " و لكن لنا إلـه واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء " في غاية الصراحة و الوضوح في إفراد الآب وحده بالإلـهية و أن كل ما سواه ـ بما فيهم المسيح ـ مخلوق منه.

و يزيد هذا الإفراد للآب بالألوهية، تأكيداً، ذكر يسوع المسيح بعده بصفة الرب فقط، و لا شك أنه لا يريد بالرب هنا الألوهية و إلا عاد مناقضا لنفسه إذ يكون قد أثبت لنا إلـهين اثنين بعد أن أكد أنه ليس لنا إلا إله واحد، لذلك لابد أن يكون مراده بالرب معنى غير الله، و هذا المعنى هو السيد المعلم، كما تدل عليه رسائله الأخرى و كما هو مصرح به في إنجيل يوحنا من أن لفظة الرب ـ عندما تطلق على المسيح ـ يقصد بها المعلم، ففي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا (الآية 38):

" فقالا ربي ! ـ الذي تفسيره: يا معلم! ـ أين تمكث؟ "

و كذلك في إنجيل يوحنا (الإصحاح 20 / آية 16):

" قال لها يسوع: يا مريم! فالتفتت تلك و قالت له ربّوني! الذي تفسيره يا معلم."

(7) و أخيراً في رسالة بولس إلى أهل أفسس (4 / 6):

" ربٌّ واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة. إلـه و آب واحد للكل، الذي على الكل و بالكل و في كلكم ".

ب ـ من العهد القديم :

(1) أول وصية من الوصايا العشر التي أوحاها الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام و كتبها له في الألواح، كما جاءت في سفر الخروج (20 / 1ـ 4) من التـوراة الحالية:

" أنا الرب إلـهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلـهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا و لا صورة مما في السماء من فوق و ما في الأرض من تحت و ما في الماء من تحت الأرض. و لا تسجد لهن و لا تعبدهن ".

(2) و في سفر الخروج أيضا (23 / 13): " و لا تذكروا اسم آلهة أخرى و لا يسمع من فمك ".

(3) و في سفر التثنية من التوراة (6 / 4 ـ 5 ثم 14 ـ 16) يوحي الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يقول لبني إسرائيل:

" اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلـهك من كل قلبك و من كل نفسك و من كل قوتك...

الرب إلـهك تتقي، و إياه تعبد، و باسمه تحلف، لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم، لأن الرب إلـهكم إلـه غيور في وسطكم، لئلا يحمى غضب الرب إلـهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض ".

(4) و في سفر التثنية (4 / 39) من التوراة أيضا:

" فاعلم اليوم و ردد في قلبك أن الرب هو الإلـه في السماء

من فوق و على الأرض من أسفل، ليس سواه ".

(5) و في سفر أخبار الأيام الأول (17 / 20) قول داود عليه السلام لله عز وجلّ:

" يا رب ليس مثلك، و لا إلـه غيرك، حسب كل ما سمعناه بآذاننا ".

(6) و في سفر نحميا (9 / 5 ـ 7) من العهد القديم:

" قوموا باركوا الرب إلـهكم من الأزل إلى الأبد و ليتبارك اسم جلالك المتعالي على كل بركة و تسبيح. أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السماوات و سماء السماوات و كل جندها و الأرض و كل ما عليها و البحار و كل ما فيها. و أنت تحييها كلها و جند السماء لك يسجد ".

(7) و في زبور داود عليه السلام المسمى بسفر المزامير (16 / 1 ـ 2 ـ 4):

" احفظني يا الله لأنني عليك توكلت. و قلت للرب أنت سيدي. خيري لا شيء غيرك.... تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر، لا أسكب سكائبهم من دم و لا أذكر أسماءهم بشفتي ".

(8) و في المزامير لداود عليه السلام أيضا (18 / 30 ـ 31):

" الله طريقه كامل. قول الرب نقي. ترسٌ هو لجميع المحتمين به. لأنه من هو إله غير الرب؟ و من هو صخرة سوى إلـهنا؟؟ ".

(9) و في سفر النبي إشعيا عليه السلام (44 / 6):

" هكذا يقول الرب ملك إسرائيل و فاديه. رب الجنود: أنا الأول و أنا الآخر و لا إلـه غيري ".

(10) و في سفر النبي إشعيا أيضا (45 / 5 ـ 6 ـ 7):

" أنا الرب و ليس آخر. لا إله سواي... لكي يعرفوا من مشرق الشمس و من مغربها أن ليس غيري. أنا الرب و ليس (من رب) آخر. مصور النور و خالق الظلمة و صانع السلام و خالق الشر أنا صانع كل هذه ".

(11) و أيضا في سفر النبي إشعيا عليه السلام (45 / 18 و 21 ـ 22):

" أنا الرب و ليس (من رب) آخر... أليس أنا الرب و لا إله غيري؟ إلـهٌ بارٌّ و مخلِّصٌ ليس سواي. التفتوا إلي و أخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأنني أنا الله و ليس (من إلـه) آخر ".

(12) أما سفر النبي إرميا عليه السلام ، و هو سفر طويل يضم 52 إصحاحا، فمحوره كله يدور حول توحيد الله تعالى و نبذ كل آلهة سواه، و عبادته وحده و تقديم البخور و النذور و الأضاحي له وحده و عدم تقديمها لآلهة مزيفة غيره، و الدعاء باسمه وحده و التوكل عليه وحده و عدم التوكل على غيره، و لا يتسع المجال لذكر كل شواهد ذلك فنكتفي بالإشارة لمواضعها :

إرميا: 1/16، 7/6 و 9، 10/3ـ16، 10/25، 11/10ـ11 و 17، 16/11، 16/19ـ21، 17/5ـ8، 18/5، 35/15،25/6، 44/3ـ8، 44/15ـ28.

(13) و الإصحاح السادس من سفر النبي حزقيال عليه

السلام ، يدور كله حول عاقبة بني إسرائيل الذين اتجهوا لعبادة أصنام و آلهة غير الله و ما سيحل بهم من عذاب الله و سخطه و انتقامه.

(14) و في سفر النبي هوشع عليه السلام (13 / 4):

" و أنا الرب إلـهك، من أرض مصر، و إلـها سواي لست تعرف، و لا مخـلِّص غيري ".

(15) و في سفر النبي يوئيل عليه السلام (2/ 27):

" و تعلمون أني أنا في وسط إسرائيل و أني أنا الرب إلـهكم و ليس هناك غيري ".

(16) و في سفر النبي زكريا عليه السلام (14 / 9):

" و يكون الرب ملكا على الأرض كلها. و في ذلك اليوم يكون رب واحد، و اسمه واحد "[6] .

القسم الثاني :

نصوص يبين فيها المسيح بكل وضوح أن الله تعالى إلـهه و معبوده

(1) في إنجيل يوحنا (20 / 17):

" قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. و لكن اذهبي إلى إخوتي و قولي لهم: إني أصعد إلى أبي و أبيكم و إلهي و إلهكم "

قلت: هذه الآية من أصرح العبارات في نفي عيسى الألوهية عن نفسه. إذ كيف يكون إلـها و هو يعترف و يقر بأن الله تعالى إلـهه؟! و هل الله يكون له إلـه؟؟

و هذا هو ما صدَّقَه القرآن الكريم حين أكد أن عيسى عليه السلام كان يقول:

" و قال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي و ربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و ما للظالمين من أنصار " المائدة / 72.

و مثله أيضا ما قاله تعالى عنه عليه السلام أنه سيقول يوم القيامة:

" ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي و ربكم " المائدة / 117.

(2) و في إنجيل متى (27 / 46)، و إنجيل مرقس (15 / 34):

" و نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لم شبقتني: أي إلـهي إلـهي لماذا تتركني؟ "

قلت: فههنا كذلك يبين عيسى المسيح عليه السلام أن الله تعالى إلـهه، و يستغيث بإلـهه هذا بتكرار و تضرع، فأين هذا ممن يدعي أن عيسى المسيح نفسه كان هو الله تعالى؟!

(3) و في رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (1 / 3 و 16 ـ 17):

" مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح.....

لا أزال شاكرا لأجلكم ذاكرا إياكم في صلواتي. كي يعطيكم إلهُ ربِّنا يسوعَ المسيحِ، أبو المجد، روح الحكمة و الإعلان في معرفته "

قلت: فوصف بولسُ اللهَ تعالى بأنه أبو المسيح، ثم وصفه بـإلـه المسيح، مما يفيد بكل وضوح أن يسوع المسيح عبدٌ لله و ليس بإله، إذ لو كان المسيح إلـها لما قال بولس أن الله تعالى إلـهه، لأن " الإلـه " أزلي واجب الوجود لا خالق و لا إله له، و هذا من أوضح الواضحات !!

القسم الثالث :

نصوص تبين عبادة المسيح لله عز و جل و إكثاره من الصلاة له تبارك و تعالى

(1) في إنجيل متى (4 / 23 ـ 24) وإنجيل مرقس (6 / 40 ـ 48):

"و بعدِ ما صفَّ الجموع، صعَد (أي المسيح) إلى الجبل منفرداً ليصلي. و لما صار المساء كان هناك وحده. و في الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحرا!".

قلت: من هذا النص يتبين أمران:

أولاً: أن سيدنا المسيح عليه السلام كان يحبِّذ الصلاة منفردا مما يفيد أن هذه الصلاة كانت فعلا لرغبته بعبادة الله تعالى، لا لمجرد تعليم التلاميذ.

ثانياً: أنه عليه السلام كان يقضي أحيانا أكثر النهار و أكثر الليل في الصلاة، كما يفيده قوله: " و لما صار المساء "، و قوله: " و في الهزيع الرابع من الليل " الذي يفيد أنه إلى ذلك الوقت كان لا يزال منفردا لوحده مستيقظا مشغولا بالصلاة و المناجاة و العبادة.

و النصوص الأخرى التالية تؤكد ذلك الموضوع :

(2) في إنجيل مرقس (1 / 35):

" و في الصباح الباكر جدا قام و خرج و مضى إلى موضع خلاء. و كان يصلي هناك ".

(3) و في إنجيل لوقا (5 / 16):

" و أما هو (أي عيسى) فكان يعتزل في البراري و يصلي ".

(4) و في إنجيل لوقا (6 / 12) أيضا:

" و بعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس و يوحنا و يعقوب و صعد على جبل ليصلي. و فيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة و لباسه مبيضا لامعا ".

(6) و في إنجيل لوقا أيضا (9 / 18):

" و فيما هو يصلي على انفراد، كان التلاميذ معه ".

(7) و في إنجيل لوقا كذلك (11 / 1):

" و إذا كان يصلي في موضع، فلما فرغ قال واحد من تلاميذه: يا رب! علمنا أن نصلي كما علم يوحنا أيضا تلاميذه

."

(8) و في إنجيل متى (26 / 36):

" حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جثـسيماني فقال للتلاميذ: اجلسوا ههنا حتى أمضي و أصلي هناك ".

(9) و في إنجيل متى أيضا (26/ 39 ـ 44):

" ثم تقدم قليلا و خرَّ على وجهه (أي سجد)[7] و كان يصلي قائلا: يا أبتاه إن أمكن فلتعبرـ هذه الكأس. و لكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت. ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياما. فقال لبطرس: أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا و صلوا لئلا تدخلوا في تجربة، أما الروح فنشيط و أما الجسد فضعيف. فمضى ثانية و صلى.... ثم جاء فوجدهم أيضا نياما... فتركهم و صلى ثالثة "[8] .

قلت: من تلك النصوص يظهر مدى اهتمام عيسى بالصلاة لله عز وجلَّ، و أن الصلاة كانت عبادة محببة له و مفزع يلجأ إليه عند الملمات، و أنه كان في الغالب يصعد للهضاب ليصلي لوحده منفردا، يقضي بذلك أحيانا أكثر الليل و أكثر النهار أيضا.

و نسأل القارىء المنصف: هل الله تعالى يصلي؟؟ و إن صلّى فلمن يصلي؟ ألنفسه؟! و هل هذا يمكن أن يقول به مجنونٌ فضلا عن عاقل؟! إذن أليست تلك النصوص دلائل بينة و قاطعة على نفي إلـهية عيسى و تأكيد عبوديته لله الواحد القهار؟؟

القسم الرابع :

نص يبين المسيح فيه أن الله تعالى أعظم منه و نصٌّ لبولس يؤكد فيه أن الابن خاضع لله مثل جميع المخــلوقات

(1) في إنجيل يوحنا (14 / 28) يقول السيد المسيح عليه السلام لتلاميذه :

" سمعتم أني قلت لكم أنا أذهب ثم آتي إليكم. لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني أمضي إلى الآب، لأن أبي أعظم منّي "

قلت: الجملة الأخيرة صريحة في نفي عيسى عليه السلام الألوهية عن نفسه، لأنه لو كان إلـها ـ كما يدعون ـ لكان كاملا مطلقا، و الكامل المطلق لا يوجد من هو أعظم منه، في حين أن المسيح عليه السلام يثبت أن الآب (أي الله تعالى) أعظم منه. و هذا النص أيضا يبين خطأ دستور الإيمان الذي أقره مجمع نيقية و الذي نص على التساوي بين الآب و الابن. سبحان الله! رسول الله عيسى المسيح عليه السلام ينفي التساوي بينه و بين الله و يبين أن الله تعالى أعظم منه، و آباء مجمع نيقية يصرون على تساويهما، فأيهما نصدق؟؟

(2) و في رسالة بولس الأول إلى أهل كورنثوس (15 / 28):

" و متى أُخْضِعَ له (أي لله) الكـل، فحينئذ الابن نفسه أيضا سيخضع للذي أخضع له الكل، لكي يكون الله الكـل في الكـل. "

قلت: ففي هذا النص يبين بولس أن المسيح سيخضع في النهاية لله، و هذا بحد ذاته من أوضح الأدلة على عدم إلـهية المسيح لأن الإلـه لا يخضع لأحد، كما أن في قوله: "

سيخضع للذي أخضعَ له الكل "، دلالة أخرى على عدم إلـهية المسيح لأن مفاد هذه الجملة أن الله تعالى هو الذي كان قد أخضع للمسيح كل شيء، مما يعني أن المسيح لم يكن يستطع، بذاته و مستقلا عن الله، أن يسخر و يخضع الأشياء. فهل مثل هذا يكون إلـها؟!!

القسم الخامس:

نصوص يؤكد فيها المسيح محدودية علمه

(1) في إنجيل مرقس (13 / 32) يقول المسيح عن يوم القيامة :

" و أما ذلك اليوم و تلك الساعة فلا يعلم بهما أحد و لا الملائكة الذين في السماء و لا الابن، إلا الآب ".

(2) و في إنجيل متى (24 / 36)، قول عيسى أيضا :

" و أما ذلك اليوم و تلك الساعة فلا يعلم بهما أحد و لا ملائكة السماوات[9] ، إلا أبي وحده ".

قلت: هذا النص من أوضح الأدلة على نفي إلـهية المسيح عليه السلام ، لأن المسيح حصر علم قيام الساعة بأبيه الله تعالى وحده فقط، و نفي هذا العلم عن نفسه و عن سائر عباد الله الآخرين من الملائكة و غيرهم، و سوى بين نفسه و بين سائر المخلوقات في انتفاء العلم بالساعة، و هذا ما صدقه القرآن الكريم أيضا حين أكد انحصار علم الساعة بالله تعالى وحده كما جاء في قوله تعالى مثلا: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي..} الأعراف / 187. و هذا من أوضح الأدلة على بشرية عيسى

عليه السلام المحضة، لأنه لو كان إلـها لكان علمه محيطا بكل شيء و مساويا لعلم الآب في كل شيء.

هذا و لما لم يكن العلم من صفات الجسد، فلا يجري فيه عذر أساقفة النصارى المشهور بأنه " نفى العلم باعتبار جسميته و ناسوته "! لأن العلم ليس من صفات الجسد بل من صفات الروح. فظهر من ذلك بشريته المحضة عدم وجود أي طبيعة إلـهية في المسيح عليه السلام إذ لو وجدت لما جهل هذه الأمور.

(3) في إنجيل متى (21 / 18 ـ 19) و إنجيل مرقس (11 / 11 ـ 4) :

" فدخل يسوع أورشليم... و في الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع. فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق و جاء لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها لم يجد شيئا إلا ورقا. لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع و قال لها: لا يأكل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد! ".

هذا النص يبين أن سيدنا عيسى عليه السلام لما رأى الشجرة من بعد، لم يدر و لم يعلم أنها في الواقع غير مثمرة، بل توقع لأول وهلة أن تكون مثمرة، لذلك ذهب باتجاهها، لكن لما اقترب منها ظهر له أنها غير مثمرة فعند ذلك غضب عليها و لعنها!.

و في هذا عدة دلائل واضحة على نفي إلـهية عيسى عليه السلام :

فأولاً: عدم علمه منذ البداية بخلو الشجرة من الثمر يؤكد بشريته المحضة لأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء.

وثانياً: كونه جاع تأكيد آخر أنه بشر محض يحتاج للغذاء للإبقاء على حياته، فإن قالوا بأنه جاع بحسب ناسوته، قلنا أفلم يكن لاهوته قادرا على إمداد ذلك الناسوت (أي الجسد)؟! خاصة أنكم تدعون أن اللاهوت طبيعة دائمة له و حاضرة لا تنفك عنه!!

وثالثاً: أنه لما وجد الشجرة غير مثمرة لعنها و بقي جائعا! و لو كان إلـها لكان عوضا عن أن يلعنها و يبقى جائعا، يأمرها أمرا تكوينيا أن تخرج ثمرها على الفور، لأن الله لا يعجزه شيء بل يقول للشيء كن فيكون، فكيف يُصْرَفون عن هذه الدلائل الواضحات و الآيات البينات! وهل بعد الحق إلا الضلال ؟

القسم السادس :

نصوص تفيد ابتداء بعثة المسيح بنـزول الملائكة و روح القدس عليه عند اعتماده عن يد النبي يحيى (يوحنا) المعمدان عليه السلام

(1) جاء في إنجيل متى (3 / 13 ـ 17):

" حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن، إلى يوحنا ليعتمد منه، و لكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك و أنت تأتي إلي؟ (15) فأجاب يسوع و قال له اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ، حينئذ سمح له. (16) فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، و إذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة و آتيا عليه (17) و صوت من السماوات قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت ".

و أقول: من البديهي أنه لو كان المسيح عليه السلام هو الله تعالى نفسه الذي تجسد و نزل لعـالم الدنيا ـ كما يدعون ـ لكـانت رسـالته مبـتـدئة منذ ولادتـه، و لكان روح القدس ملازما له باعتباره جزء اللاهوت الذي لا يتجزأ ـ كما يدعون ـ، و لما احتاج إلى من ينزل عليه بالوحي أو الرسالة، و لما كان هناك أي معنى أصلا لابتداء بعثته بهبوط روح القدس عليه و ابتداء هبوط الملائكة صاعدين نازلين بالوحي و الرسائل عندما بلغ الثلاثين من العمر و اعتمد على يد يوحنا النبي عليه السلام ! فهذا النص و النصوص التالية التي تبين كيفية بدء البعثة النبوية للمسيح، لأكبر و أوضح دليل ـ عند ذوي التجرد و الإنصاف ـ على بشرية المسيح المحضة و عدم إلهيته و أنه ليس الله المتجسد بل عبدٌ رسولٌ و نبيٌّ مبعوثٌ برسالة من الله كسائر الأنبياء و الرسل و حسب.

(2) و لقد استشهد متى في إنجيله، ببشارة كانت قد وردت في سفر إشعيا من العهد القديم فاعتبرها بشارة عن المسيح، و هي تشير أيضا لنزول روح الله (أي جبريل) على المبشَّر به، ليعلن الحق للأمم:

" (14) فلما خرج الفريسـيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. (15) فعلم يسوع و انصرف من هناك. و تبعه جموع كثيرة فشفاهم جميعا. (16) و أوصاهم ألا يظهروه.(17) لكي يتم ما قيل بأشعيا النبي القائل: هو ذا فتاي [و بالترجمة الجديدة: هو ذا عبدي] الذي اخترته، حبيبي الذي سُـرَّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق.." متى: 12 / 14ـ 17.

و الشاهد قوله: أضع روحي عليه، أي أنزل جبريل، روح الله، عليه بالوحي، فيخبر الأمم بالحق .

(3) و إلى هذا الشروع بالعمل الرسالي أشار يوحنا في إنجيله فقال :

" من الآن ترون السماء مفتوحة و ملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان " يوحنا: 1/51.

(4) هذا و قد نقل يوحنا الإنجيلي أيضا عن النبي يحيى (يوحنا) المعمدان أنه قال لليهود لما تباحثوا معه عن ذاك (أي المسيح) الذي بدأ يعمد الناس، فقال النبي يحيى عليه السلام لهم: " إذاً فرحي قد كمُلَ. ينبغي أن ذلك يزيد و أنا أنقص " يوحنا: 3 / 29 ـ 3. مبينا بدء رسالة المسيح و تواتر وحي الله تعالى إليه.

(5) و لننظر ما ذكره لوقا عن بدء بعثة المسيح بنزول روح القدس عليه:

" و لما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضا و إذ كان يصلي انفتحت السماء و نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة و كان صوت من السماء قائلا: أنت ابني الحبيب بك سررت. و كان يسوع عند بدء رسالته في نحو الثلاثين من عمره... و رجع يسوع من الأردن و هو ممتلئ من الروح القدس " لوقا: 3 / 21 ـ 23، ثم 4/.

و نسأل أصحاب التثليث: أليس هذا النص أوضح دليل على نفي إلـهية المسيح و نفي التثليث، فأولاً: لو كان المسيح إلـها متجسدا لما احتاج لروح القدس ليهبط عليه بالرسالة! و ثانياً: لو كان التثليث حقا لكان المسيح متحدا دائما و أزلا مع روح القدس، فما احتاج أن يهبط عليه كحمامة!، و لما قال الله تعالى عند اعتماده و ابتداء بعثته هذا ابني الحبيب، لأنه من المفروض أنه كان جزء اللاهوت بزعمهم من البداية و لأن الله لا يمكن أن تنفصل عنه إحدى صفاته.

القسم السابع :

المسيح يُعرِّف نفسه بأنه نبيٌّ و رسولٌ لِلَّه و يؤكد أنه عبدٌ مأمورٌ لا يفعل إلا ما يأمره به الله تعالى و لا يتكلم إلا بما يسمعه من الله تعالى

البديهي أن المسيح عليه السلام لو كان هو الله تعالى نفسه الذي تجسَّد و صار بشرا و جاء لعالم الدنيا بنفسه ـ كما استقر عليه دستور الإيمان المسيحي ـ لما صح أن يطلق عليه لقب نبيّ، لأن " النبيّ " اسم لشخص منفصل عن الله يُـنبىء عن الله تعالى، أي يخبر عنه، بما يسمعه من الله إما بواسطة الكلام المباشر أو الوحي الخفي أو ملكٍ رسول، كذلك لا يصح أن يطلق عليه اسم " رسول " لأن الرسول اسم لشخص منفصل عن الله، يبعثه الله تعالى لأداء مهمة ما، أما الله تعالى لو تجسد فعلا و صار بنفسه إنسانا و نزل لعالم الدنيا ليعلن الدين الجديد بنفسه، فلا يكون عندئذٍ رسولاً، إذ ليس ثمة مرسلٍ له ، بل في هذه الحالة يكون هو نفسه، و بدون واسطة، قد أخذ على عاتقه مهمة الاتصال بمخاطبيه.

و حاصله أنه لو صح أن المسيح كان الله نفسه متجسدا، لما صح أن يسمى رسولا و لا نبيا. ولكن الحقيقة أن الأناجيل طافحة بالنصوص التي يعرِّفُ المسيح عليه السلام فيها نفسه بأنه " نبيّ " و بأنه " رسول " أرسله الله تعالى للناس، و أن ما يقوله للناس ليس من عند نفسه بل من عند الله الذي أرسله، فتعليمه ليس لنفسه بل للآب الذي أرسله، فهل هناك أصرح من هذا في بيان الغيرية بين عيسى والله تعالى؟، وأنهما اثنان: مُـنبىء ونبي ، و مُرسل و رسـول ؟!

و فيما يلي بعض ما جاء في هذا المجال :

(1) في إنجيل متى (13 / 54 ـ 58):

" و لما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا و قالوا من أين لهذا هذه الحكمة و القوات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم و إخوته يعقوب و يوسي و سمعان و يهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟ فكانوا يعثرون به. و أما يسوع فقال لهم: ليس نبيٌّ بلا كرامة إلا في وطنه و في بيته. و لم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم "

و الشاهد في قوله " ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه " حيث عبر عن نفسه بأنه نبي، و هذه الجملة وردت في الأناجيل الأربعة جميعا[10] .

(2) و في إنجيل متى كذلك (10 / 40 ـ 41) في ذكره لما قاله السيد المسيح عليه السلام للحواريين الاثني عشر حين أرسلهم لدعوة بني إسرائيل و تبشيرهم بالإنجيل:

"من يقبلكم يقبلني و من يقبلني يقبل الذي أرسلني و من يقبل نـبـياً باسم نـبـي فأجر نـبـيٍ يأخذ."

(3) في إنجيل لوقا (10/16) في آخر الخطبة التي قالها السيد المسيح عليه السلام للتلاميذ السبعين الذي أرسلهم اثنين اثنين للوعظ و البشارة بالإنجيل في قرى فلسطين، أنه قال لهم:

" الذي يسمع منكم يسمع مني و الذي يرذلكم يرذلني و الذي يرذلني يرذل الذي أرسلني ".

(4) و في إنجيل لوقا (4 / 42 ـ 43):

" و لما صار النهار خرج و ذهب إلى موضع خلاء و كان الجموع يفتشون عليه فجاءوا إليه و أمسكوه لئلا يذهب عنهم. فقال لهم: إنه ينبغي لي أن أبشِّـر المدن الأخرى أيضا بملكوت الله لأني بهذا أُرْسِـلْتُ ".

(5) و في إنجيل يوحنا (7 / 28 ـ 29):

" فنادى يسوع و هو يعلم في الهيكل قائلا: تعرفونني و تعرفون من أين أنا و من نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه و هو أرسلني "

(6) و فيه أيضا (8 / 16 ـ 17):

" و إن كنت أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا و الآب الذي أرسلني. و أيضا في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق. أنا هو الشاهد لنفسي و يشـهد لي الآب الذي أرسلني "

قلت: استشهاد المسيح عليه السلام بحكم التوراة " شهادة رجلين حق " تصريح منه بالغيرية بينه وبين الله تعالى الذي يشهد له، فهما إذن اثنان: مرسِل و رسول، و هذا ينفي بوضوح قضية أن المسيح هو الله نفسه متجسدا.

و الآن إليكم هذه العبارة التي قد تفاجئكم بشدة وضوحها و صراحتها في نفي إلهية عيسى :

(7) ففي إنجيل يوحنا (8 / 40):

" و لكنكم الآن تطلبون أن تقتلونني و أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله "

أقول: لو لم يكن في الإنجيل سوى هذه الآية لكفى بها دلالة على نفي إلـهية عيسى عليه السلام .

(7) و فيه أيضا (8 / 26 ـ 29):

" لكن الذي أرسلني هو حق و أنا ما سمعته فهذا أقوله للعالم. و لم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب. فقال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو و لست أفعل شيئا من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي و الذي أرسلني هو معي و لم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه "

(8) و فيه أيضا: (10/36) :

" فالذي قدَّسه الآب و أرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدَّف لأني قلت أني ابن الله؟! "

(9) و فيه أيضا: (20/20) :

" فقال لهم يسوع أيضا سـلام لكم. كما أرسلنـي الآب أرسلـكم أنا "

قلت: ففي العبارة الأخيرة يماثل سيدنا المسيح عليه السلام بين إرسال الآب له و إرساله هو لتلاميذه للدعوة و التبشير، و بالتالي فكما أن تلاميذه و حوارييه ليسوا عيسى بعينه! فبمقتضى التماثل لا يكون عيسى عليه السلام هو الله بعينه، بل يكون رسوله و مبعوثه.

و فيما يلي بعض النصوص التي يبين فيها المسيح عليه السلام أنه لا يتكلم من نفسه بل هو حامل لرسالة من الله مأمور بتبليغها للناس، و أنه لا يعلم إلا ما يوحى إليه:

(1) في إنجيل يوحنا (14/24) :

" الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي. و الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني"

(2) و فيه أيضا: (15/15)

" لكني سميتكم أحبَّاء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي "

(3) و فيه كذلك (12 / 49 ـ 50):

" لأني لم أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول و بماذا أتكلَّم. و أنا أعلم أن وصيته هي حيوة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلم "

و أعتقد أن هذه العبارات واضحة للغاية في تأكيد ما قلناه، و نظائر هذا في الأناجيل كثير، لا سيما إنجيل يوحنا، و فيما ذكرناه الكفاية.

كان هذا ما عرَّف به المسيح نفسه، فكيف عرفه تلاميذه و بماذا وصفوه؟ هل جاء على لسان أي أحد منهم و لو مرة واحدة عبارة يصفه بها بأنه الله نفسه متجسدا؟ أم وصفوه،كما علمهم المسيح، بأنه نـبـي و رسول مرسل من الله ؟

لنستمع للأناجيل تعطينا الإجابة الواضحة :

(1) في إنجيل متى (21 / 10 ـ 11) قول المؤمنين بالمسيح عليه السلام لدى استقبالهم له عند دخوله بيت المقدس :

" مبارك الآتي باسم الرب... هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل ".

(2) و في إنجيل لوقا (7 / 12 ـ 16) :

" فلما اقترب (يسوع المسيح) إلى باب المدينة إذا ميت محمول، ابن وحيدٍ لأمّه. و هي أرملة و معها جمع كثير من المدينة. فما رآها الرب تحنّن عليها و قال لها لا تبكي. ثم تقدّم و لمس النعش فوقف الحاملون. فقال: أيها الشاب أقول لك قُـمْ!. فجلس الميت و ابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمّه. فأخذ الجميع خوفٌ و مجدوا الله قائلين: قد قام فينا نّبِيٌّ عظيم و افتقد الله شعبه ".

(3) و في إنجيل يوحنا (4/19) : عن المرأة التي دهشت لما أخبرها المسيح، الذي لم يكن يعرفها من قبل، عن أزواجها الخمسة السابقين! أنها قالت:

" يا سـيـّد! أرى أنك نـبـيّ.. ".

(4) و في إنجيل يوحنا (6/14) : أيضا بعد ذكره لمعجزة تكثير أرغفة الشعير الخمسة و السمكتين:

" فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النـبـي الآتي إلى العالم ".

(5) و أخيراً جاء في آخر إنجيل لوقا (24/19) : ضمن

روايته للحوار الذي جرى بين المسيح، بعد صلبه (حسب تصورهم)، و اثنين من حوارييه، الذين لم يعرفوه لأنه كان متنكرا و لأنهم كانوا يتصورون أنه قد مات:

" فقال (لهما) (يسوع): و ما هي؟ (أي تلك الأحداث التي جعلتكم مغمومين) قالا: المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنسـانا نّـبِـيَّـاً مقتدرا في الفعل و القول أمام الله ".

أجل، هكذا كان إيمان الحواريين بالمسيح: أنه كان إنسانا نبياً. و من الجدير بالذكر أن هذا الحوار جرى في آخر حياة المسيح عليه السلام ، و قبيل رفعه، فلا مجال للقول بأن هذا كان تصورهم القديم في بداية الدعوة لكنهم آمنوا بعد ذلك بألوهيته؟؟

و نحن نسأل كل منصف: من الذي كان يعرف حقيقة المسيح أكثر: هل هم تلاميذه و حواريوه الخلّص و أقرب الناس إليه؟ أم الآباء و الأساقفة اليونان أو الروم الذين أداروا مجمع نيقية أو مجمع أفسس أو مجمع خلقيدونية و الذين تفصلهم عن المسيح ثلاثة أو أربعة قرون؟؟

القسم الثامن :

نصوص تؤكد أن المسيح لم يكن يمتلك بذاته و مستقلا عن الله أي قدرة و قوة، و أن السلطان ـ أي الولاية التكوينية و التشريعية ـ الذي أوتيه إنما دُفع إليه من قبل الله تعالى

من البديهيات التي لا نقاش فيها أن من صفات الله عز و جل الضرورية اللازمة: القدرة الكلية التامة، أي أن الله قادر على جميع الممكنات و أن قدرته نابعة من ذاته و غير مكتسبة، بمعنى أن الله تعالى قادر و فاعل بالذات و

بالاستقلال المطلق، فلا يحتاج في قدرته و أفعاله لمساعدة أي قدرة أخرى و لا إلى مدد أي شيء آخر، فهل هكذا كان شأن المسيح عليه السلام ؟

كلا، على الإطلاق. إن الأناجيل الأربعة تنقل عن سيدنا المسيح عليه السلام نفسه تصريحات متكررة يعلن فيها بكل وضوح أنه كان لا يقدر أن يفعل من نفسه شيئا، و لا يفعل إلا ما أقدره الله تعالى عليه و أمره به، و أن ما لديه من سلطان و ما أوتيه من قوة، هو مما منحه الله تعالى و دفعه إليه. و في كل هذا نفي صريح لإلـهية المسيح عليه السلام و تأكيد واضح لعبوديته لله عز و جل و افتقاره إليه. و فيما يلي بعض النصوص في هذا المجال:

(1) جاء في إنجيل لوقا: (5/19) :

" فأجاب يسوع و قال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل ".

(2) و فيه أيضا في نفس الإصحاح (5/ 30) :

" أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا. كما أسمع أدين و دينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني ".

(3) و في نفس الإنجيل و الإصحاح أيضا (5 / 36) :

" و أما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنَّا. لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأعملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني ".

(4) و في إنجيل يوحنا (4 / 35) :

" الآبُ يحبُّ الابن و قد دفع كل شيء في يده ".

(5) و في إنجيل متى (28 / 18) :

" فتقدَّم يسوع و تمهَّل قائلاً: دُفِعَ إليَّ كل سلطان في السماء و على الأرض ".

(6) و في إنجيل لوقا (10 / 21 ـ 22) :

" و التفت (أي المسيح) إلى تلاميذه و قال: كل شيء قد دُفِـعَ إليَّ من أبي ".

القسم التاسع :

نصوص تفيد أن المعجزات التي كان يصنعها المسيح عليه السلام لم يكن يفعلها بقوته الذاتية المستقلة بل كان يستمدها من الله و يفعلها بقوة الله، أي أن الفاعل الحقيقي لها كان الله عز و جل الذي أظهرها علي يدي المسيح عليه السلام لتكون شاهدا له على صحة نبوته

(1) من المعروف أن معجزة إحياء الموتى كانت أحد أعظم معجزات السيد المسيح عليه السلام فهل كان يفعلها بقوته الذاتية؟ أبداً. فها هو إنجيل يوحنا يروي لنا معجزة إحياء المسيح لشخص مضى على وفاته أربعة أيام يدعى " عازر "، فيبين بوضوح أن هذه المعجزة ما حصلت إلا بعد أن تضرع المسيح لله عز و جل و طلب منه تحقيق هذه المعجزة ليؤمن الناس به و يصدقوا أن الله تعالى أرسله، فسـمعه الآب (الله) و استجاب له و أعطاه تلك المعجزة العظيمة. و إليك نص عبارته كما جاءت في (11/ 41 ـ 44)

من إنجيله:

" فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا و رفع يسوع عينيه إلى فوق و قال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعتَ لي. و أنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي. و لكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني. و لما قال هذا، صرخ بصوت عظيم: " لعازر! " هلمَّ خارجا. فخرج الميت و يداه و رجلاه مربوطات بأقمطة و وجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم يسوع: حلُّوه و دعوه يذهب "

(2) و كذلك روى متى و لوقا في إنجيليهما عن المسيح عليه السلام أنه إنما كان يخرج الشياطين من المصروعين و المجانين لا بقوته الذاتية و لكن بروح الله أو بإصبع الله. و هو تعبير آخر عما ذكره القرآن عن عيسى بأنه إنما كان يفعل معجزاته بإذن الله. ففي إنجيل متى (12 / 24 ـ 28):

" أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا: هذا لا يخرج الشياطين إلا بِـبَـعْلَزَبُول رئيس الشياطين.فعلم يسوع أفكارهم و قال لهم: كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب. فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته؟.. و لكن إذا كنتُ أنا بروح الله أخرج الشيطان فقد أقبل عليكم ملكوت الله "

و في إنجيل لوقا : (11/20)

" و لكن إن كنت أنا بإصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله "

(3) في إنجيل يوحنا (5/36) قول عيسى عليه السلام :

" و أما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا لأن الأعمال التي

أعطاني الآب لأعملها، هذه الأعمال بعينها التي أعملها هي تشهد لي بأن الآب قد أرسلني "

قلت: و العبارة في غاية الدلالة و الوضوح و لا تحتاج لتعليق.

كان هذا ما قاله المسيح عن معجزاته، و الآن لنر كيف كان التلاميذ ينظرون إلى معجزات المسيح؟ هل كانوا يعتبرونها خوارق من صنع يديه؟ أم كانوا يعتبرونها من صنع الله الذي أظهرها على يدي عبده يسوع الناصري لتكون تأييدا لرسالته و شاهدا منه تعالى على صحة نبوته؟ إن النصوص الإنجيلية التالية تؤكد الشق الثاني من الإجابة و فيما يلي شواهد بينة على ما نقول:

(أ) في سفر أعمال الرسل (2 / 14 و 22):

" فوقف بطرس مع الأحد عشر و رفع صوته و قال لهم:... أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات و عجائب و آيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون "

(ب) و في إنجيل متى (9 / 6 ـ 8):

"... حينئذ قال للمفلوج: قم احمل فراشك و اذهب إلى بيتك. فقام و مضى إلى بيته. فلما رأى الجموعُ ذلكَ تعجّبوا و مـجـَّدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا "

(ج) و في إنجيل يوحنا (3 / 1 ـ 2):

" كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيسا لليهود. هذا جاء إلى يسوع ليلا و قال له: يا معلم، نعلم أنك

قد أتيت من الله معلما لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه "

(د) و في إنجيل يوحنا أيضا (9 / 30 ـ 31) يقول الأعمى من الولادة (أي الأكمه)، الذي أبرأ عيسى عليه السلام عينيه، لليهود الذين جاءوا إليه يجادلونه بسبب إيمانه بنبوّة عيسى عليه السلام :

"أجاب الرجل و قال لهم (أي لليهود) إن في هذا عجبا أنكم لستم تعلمون من أين هو (أي عيسى) و قد فتح عيـنيَّ، و نعلم أن الله لا يسمع للخطاة. و لكن إن كان أحد يتقي الله و يفعل مشيئته فلهذا يسمع. منذ الدهر لم يُسْمَع أن أحدا فتح عيني مولود أعمى. لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئا "

قلت: فقول هذا المؤمنـ: " و لكن إن كان أحد يتقي الله و يفعل مشيئته فلهذا يسمع " يؤكد أن عقيدته هي أن الله تعالى هو الذي سمع لدعاء عبده المتقي عيسى فأيده بهذه المعجزة و غيرها.

(هـ) و في إنجيل يوحنا (11/12) تقول مرثا (أخت لِعَازَر) للمسيح عليه السلام بعد موت أخيها و قبل أن يحيه المسيح بإذن الله:

" فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي. لكني الآن أيضا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه "

قلت: و الجملة الأخيرة في غاية الوضوح في الدلالة على ما قلناه.

القسم العاشر :

نصوص فيها استغاثة المسيح بالله عز و جل و طلبه من الله تعالى المدد و العون و دعاؤه الله تعالى لنفسه و لأجل تلاميذه مما يبين افتقار عيسى عليه السلام لله تعالى و عدم استغنائه بنفسه.

(1) تنقل الأناجيل الأربعة لنا أن سيدنا عيسى عليه السلام لما شعر بقرب الإمساك عليه و سوقه للمحاكمة و العذاب و الصلب، بتواطىء اليهود و الرومان، اشتد جزعه و اكتئابه و تضرع إلى الله باكيا ساجدا قائما طوال الليل سائلا الله تعالى أن يدفع عنه هذا البلاء و أن ينجيه من هذه المحنة الرهيبة المتوقعة، و فيما يلي نص ذلك، ففي إنجيل لوقا (22 / 39 ـ 44):

" و خرج مضى كالعادة على جبل الزيتون. و تبعه أيضا تلاميذه، و لما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة، و انفصل عنهم نحو رمية حجر و جثا على ركبتيه و صلى قائلا: يا أبتاه! إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس. و لكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك. و ظهر له ملاك من السماء يقوِّيه. و إذا كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة و صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض "

و نقل مرقس في إنجيله (14 / 33 ـ 36)، تضرُّعَ عيسى عليه السلام بصورة أشد وضوحا في الاستمداد و الاعتراف بالعجز و كون الاستطاعة بيد الله تعالى فقط، فقال :

" و ابتدأ يدهش و يكتئب، فقال لهم: نفسي حزينة جدا حتى الموت، ثم تقدم قليلا و خر على الأرض و كان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. و قال: يا أبا الآب كل شيء

مستطاع لك، فأجِزْ عني هذه الكأس و لكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت ".

أما يوحنا فنقل في إنجيله (12/17) عن عيسى عليه السلام قوله هنا: " أيها الآب نجني من هذه الساعة ".

فأقول : هل الله يحتاج لنجدة غيره أو يضطر للاستعانة بغيره و التضرع إليه؟؟ أو ليس الله بنفسه على كل شيء قدير؟! فلو كان سيدنا عيسى عليه السلام إلـها كما زُعِمَ فما معنى تضرعه إلى الله و سؤاله إياه أن يكشف عنه الكرب و ينقذه من المصيبة المحيطة به؟!

(2) و في إنجيل لوقا: (23/34) :

" فقال يسوع: يا أبتاه! اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون ".

قلت: إن الإلـه لا يحتاج أن يسأل أحدا غيره أن يغفر ذنب أحد، بل يغفر ذنب من يشاء بنفسه و يعذب من يشاء، فطلب عيسى عليه السلام المغفرة من الله للذين ظلموه، دليل على عدم إلـهيته و على أنه ليس له من الأمر شيء بل الأمر لله الآب وحده.

(3) و في إنجيل متى (26 / 50 ـ 54) :

" حينئذ تقدموا و ألقوا الأيادي على يسوع و أمسكوه. و إذا واحد من الذين مع يسوع مد يده و استل سيفه و ضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة؟! فكيف تكمل الكتب أنه هكذا

ينبغي أن يكون. "

قلت: الشاهد في قول المسيح عليه السلام : " أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي..... " الذي هو دليل واضح على نفي إلـهية عيسى لأن الإلـه لا يستعين بغيره و لا يطلب شيئا من سواه، و لو كان المسيح إلـها لقال عوضا عن ذلك: " أتظن أني لا أستطيع الآن أن أحضر أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة... " أو قال " أتظن أنني لا أستطيع أن أقضي عليهم جميعا بأمر كن فيكون؟!..." الخ. أما قوله: أستطيع أن أطلب من أبي فيدل على أنه عبدٌ لله تعالى محتاج دائما لنصره و مدده.

(4) في إنجيل يوحنا (14 / 15 ـ 16) :

" إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي و أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد "

قلت: الشاهد هو قوله: " و أنا أطلب من الآب.. " مما يثبت احتياج عيسى عليه السلام لله تعالى و أنه لا يقدر من نفسه على أن يفعل ما يريد بل يطلب ذلك من ربه سبحانه و تعالى.

(5) يشتمل الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا على دعاء طويل لعيسى عليه السلام يرفعه إلى ربه تعالى ضارعا له سائلا إياه أن ينجده و أن يحفظ تلاميذه و يقدسهم و يحفظهم من الشرير... الخ، و هذا الدعاء يُعْرَف بِاسم: الدعاء لأجل التلاميذ و بِاسم: صلاة يسوع الكهنوتية، و هو يبتدأ هكذا:

" تكلم يسوع بهذا و رفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد أتت الساعة! مـجِّـدْ ابنَك ليمَجَّدَك ابنُك أيضا...

(إلى أن قال في حق تلاميذه): أيها الآب القدوس! احفظهم في اسمك الذي أعطيتني ليكونوا واحدا كما نحن....

لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير..".

قلت: و كل هذا لا يصح على القول بإلـهية عيسى عليه السلام لأن الإله لا يطلب شيئا من غيره و لا يحتاج للدعاء و السؤال، بل يفعل ما يشاء بنفسه و بقدرته الذاتية.

القسم الحادي عشر :

المسيح عليه السلام يصرِّح بأنه إنســان و ابن إنســان و كذلك حواريّوه الخُلَّـص كانوا يؤمنون بأن المسيح إنسان نبيٌّ و رجلٌ مؤيّدٌ من الله

(1) في إنجيل يوحنا (8 / 40) يقول سيدنا المسيح عليه السلام لليهود :

" و لكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنـسـان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله ".

قلت: ما أبعد النجعة بين ما عرَّف به المسيح عليه السلام نفسه هنا من أنه: إنسان يتكلم بالحق الذي يسمعه من الله، و بين تعريف المسيح في دستور الإيمان النصراني الذي تقرر عقب مجمع نيقية و الذي أوردناه في بداية الكتاب! فأي القولين نختار: أقول المسيح المختار عليه السلام أم قول غلاة الأحبار؟!

(2) أما النصوص التي يؤكد فيها المسيح أنه ابن الإنسان فهي كثيرة جدا و هذا اللقب أي:" ابن الإنسان " كان اللقب المحبب لعيسى عليه السلام و قد تكرر في الأناجيل و الرسائل الملحقة بها 85 مرة. و نكتفي هنا بذكر نموذجين فقط :

أ ـ " و من أراد أن يصير فيكم أولا، يكون للجميع عبدا، لأن ابن الإنسان أيضا لم يأت لـيُـخْـدَم بل لـيَـخْـدِم و ليبذِل نفسه فدية عن كثيرين " إنجيل مرقس: 10 / 44 ـ 45.

ب ـ " و كما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحيوة الأبدية " إنجيل يوحنا: 3 / 14 ـ 15.

(3) و قد مرت معنا قريبا عبارة الحوارِيَّيْن الاثنين اللذين كانا يتكلمان مع المسيح بعد حادثة صلبه ـ أو بالأحرى بعد شائعة صلبه ـ دون أن يعرفاه، لأنه كان متنكرا، حيث لما سألهما عن سبب حزنهما؟ حدّثاه عما حدث لـ:

" يسوع الناصري الذي كان إنسانا نـبـيَّـاً مقتدرا في القول و الفعل أمام الله و جميع الشعب " انظر إنجيل لوقا: 24 / 13 ـ20.

(4) كذلك مرت معنا عبارة القديس بطرس التي جاءت في كلمته التي ألقاها في مجمع التلاميذ و المؤمنين بعد رفع المسيح فكان مما قاله:

" أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجـل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله بقوّات و عجائب و آيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون " أعمال الرسل: 3/22.

(5) و في إنجيل يوحنا قصة المرأة السامرية التي آمنت بالمسيح لما أخبرها بالغيب المتعلق بأزواجها السابقين الخمسة! فقالت مندهشةً:

" يا سيد أرى أنك نـبـيّ!......

و قالت للناس: هلموا انظروا إنسانا قال لي كل ما فعلت! ألـعـلَّ هذا هو المسيح! " يوحنا: 4 / 19 ثم 29.

و الحاصل أن المسيح عليه السلام نفسه كان يؤكد بشريته و إنسانيته و أنه من نسل البشر، كما أن حوارييه و المؤمنين به من تلاميذه و معاصريه، كانوا ينظرون إليه على أنه إنسان ابن إنسان و ما كان أحد يعتبره إلها ابن إله.

القسم الثاني عشر :

الحواريون و كُـتَّاب الأناجيل يعـتبرون المسيح عليه السلام عبداً لِلَّـه اجتباه الله و اختاره و يعتبرونه بشرا نبيا كموسى عليه السلام

يرى المسلمون ـ تبعا لتعليم كلام الله تعالى في القرآن الكريم ـ أن عيسى المسيح عليه السلام كان عبدَ اللهِ و رسولَه، و لعل بعض عوام النصارى يمجُّ وصف المسيح بـ " العبوديّة " و يرى فيه إنقاصا لقدر المسيح عليه السلام ، لكن الحقيقة التي قد يندهش لها المسلم قبل النصراني العامي، أن هذا الوصف بعينه، أعني وصف المسيح بالعبودية لله، جاء في متن الأناجيل، بل في متن التوراة و الزبور، أي في تلك البشارات التي كان كتَّاب الأناجيل و الحواريون يستشهدون بها على أن المقصود بها المسيح عليه السلام .

و فيما يلي الشواهد على ذلك :

(1) يقول متَّـى ـ و هو أحد الحواريين الاثني عشر ـ في إنجيله (12 / 12 ـ20) :

" و لما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. فعلم يسوع و انصرف من هناك. و تبعـته جموع كثيرة فشفاهم جميعا. و أوصاهم أن لا يظهروه. لكي يتم ما قيل بإشعيا النبي القائل: " هو ذا[11] فـتاي الذي اخترته. حبيبي الذي سُـرَّتْ به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم و لا يصيح و لا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبةً مرضوضةً لا يقصف و فتيلة مدخنة لا يطفىء. حتى يُخرِج الحق إلى النصرة و على اسمه يكون رجاء الأمم "

قلت: ففي هذا النص يستشهد كاتب الإنجيل الأول القديس متى الحواري، و هو من الحواريين الاثني عشر و من أوائل المؤمنين بالمسيح عليه السلام ، ببشارة وردت في سفر إشعيا من العهد القديم، على أنها تتكلم عن المسيح عليه السلام. و هذه البشارة تبتدأ بإعلان عبودية المسيح لله عز و جل و ذلك حين تقول: " هو ذا فتاي الذي اخترته "، إذ كلمة فتاي مرادف لكلمة عبدي أو غلامي، و للتأكد من ذلك ما علينا إلا أن نرجع إلى سفر إشعيا نفسه الذي وردت فيه تلك البشارة حيث نجد البشارة في الإصحاح الثاني و الأربعين منه كما يلي:

" هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح و لا يرفع و لا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف و فتيلة خامدة لا يطفئ.... الخ" إشعيا: 42 / 1 ـ 4.

و لذلك في الترجمة الأخرى الجديدة للعهد الجديد التي

قامت بها الرهبانية اليسوعية (الكاثوليكية) في بيروت (1989 م) استُخْدِمَت لفظة " عبدي " عند ذكر كلام متى و استشهاده بالبشارة المذكورة.

و الحاصل أن تطبيق متى الحواري تلك البشارة على عيسى عليه السلام يبين أن متى كان يرى في عيسى: " عبد الله، الذي اختاره الله تعالى و اجتباه و أوحى إليه بواسطة جبريل و بعثه بالحق للأمم... " تماما كما هو التصور الإسلامي للمسيح عليه السلام، أي لم يكن متى يرى في المسيح إلها متجسدا و لا ربا معبودا!.

(2) يذكر القديس لوقا، كاتب الإنجيل الثالث و مؤلف سفر " أعمال الرسل"[12] ، في أعمال الرسل :

أن القديس فيليبس (أحد المعاونين السبعة الذين اختارهم الحواريون لمعاونتهم في خدمة المائدة و تقسيم الأرزاق اليومية، لأنهم وجدوهم مملوئين من الروح القدس و الحكمة)، لما سأله العبد الحبشي الخصي عن الشخص المراد بالآيات التي كان يتلوها من سفر النبي إشعيا عليه السلام و التي تقول: " كخروف سيق إلى الذبح. و كحملٍ صامتٍ بين يدي من يجزُّه. هكذا لا يفتح فاه. في ذلِّهِ ألغيَ الحكم عليه. ترى من يصف ذريته؟. لأن حياته أزيلت عن الأرض"[13] ، أجابه القديس فيليبس أن هذه الآيات تشير إلى يسوع و أخذ يشرح له ذلك، فآمن الرجل و طلب من فيليبس أن يعمده فعمده.

من هذه القصة يتبين أن كلا من لوقا كاتب أعمال الرسل و القديس فيليبس كانا يريان أن تلك البشارة في كلام إشعيا إنما تنطبق على المسيح و تشير إليه، و هو أمر أصبح، فيما بعد، من المسلمات لدى آباء الكنيسة.

فإذا رجعنا إلى أصل هذه البشارة كما جاءت في سفر النبي إشعيا عليه السلام وجدناها بشارة مطولة تبدأ هكذا:

" هو ذا عـبدي يعقل، يتعالى، و يرتقي، و يتسامى جدا.. (إلى أن قال) ظُـلِـمَ أما هو فـتذلل و لم يفتح فاه،كشاةٍ تُساق إلى الذبح... (إلى قوله) و عـبدي البار بمعرفته يبرِّر كثيرين و آثامهم هو يحملها، لذلك أقسم له بين الأعزاء، و مع العـظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه و أُحْصي مع أثمة و هو حَمَلَ خطـيَّـة كثيرين و شفع في المذنبين " إشعيا: 53 / 1 ثم 7 ثم 11 ـ 12.

و إذن فإن لوقا وفيليبس اللذان طبقا هذه البشارة على المسيح، كانا يريان فيه: عبداً لِلّهِ تعالى تسامى و ارتقى بعظيم تضحيته، و عبد الله البار، الذي رضي الله عنه لأجل تضحيته فجعله مع أعزائه و قسم له مقاما بين عظمائه. لذا لا نعجب إذا رأينا لوقا ـ في كتابه أعمال الرسل ـ يطلِق على المسيح مرارا لقب "عبد الله"[14] ، كما نجد ذلك في أعمال الرسل: 3 / 13 و 26، و 4 / 27 و 30. هذا و من الجدير بالذكر أن لوقا و فيليبس ليسا الوحيدين اللذين ذكرا أن تلك البشارة تشير للمسيح، بل شاركهما في ذلك أيضا متى في إنجيله: 8/17.

(3) و في سفر أعمال الرسل أيضا (3 / 12 ـ 26) ينقل لوقا الخطبة التي ألقاها القديس و الحواري بطرس أمام الشعب الإسرائيلي فيقول:

" فلما رأى بطرس ذاك أجاب أيها الشعب الإسرائيليون...

إن إله إبراهيم و إسحق و يعقوب إلـه آبائنا مجَّـد عـبـده يسوع الذي أسلمتموه أنتم و أنكرتموه أمام وجه بيلاطس و هو حاكم بإطلاقه. و لكن أنتم أنكرتم القدوس البار و طلبتم

أن يوهب لكم رجل قاتل. و رئيس الحيوة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات و نحن شهود لذلك.

و الآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضا. و أما الله فما سبق و أنبأ به بأفواه جميع أنبيائه أن يتألم المسيح قد تممه هكذا. فتوبوا و ارجعوا لتمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب. و يرسل يسوع المسيح المبشر به لكم قبل. الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر. فإن موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلـهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلمكم به. و يكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب. و جميع الأنبياء أيضا من صموئيل فما بعده جميع الذين تكلموا سبقوا و أنبأوا بهذه الأيام. أنتم أبناء الأنبياء و العهد الذي عاهد به الله أباءنا قائلا لإبراهيم: و بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض. إليكم أولا إذا أقام الله فـتـاه يسوع أرسله يباركك‌م بردِّ كلَّ واحد منكم عن شروره "

من هذا النص أيضا يتبين أن عقيدة القديس بطرس ـ الذي كان من أقرب الحواريين للمسيح[15] ـ بالمسيح عليه السلام لم تتجاوز كونه عبد الله، و كونه نبيا كموسى عليه السلام، حيث استشهد بطرس ببشارة واردة في التوراة يقول فيها الله تعالى لموسى أن يقول لبني إسرائيل: " إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلـهكم من إخوتكم " فاعتبر البشارة متعلقة بالمسيح، مما يعني كون المسيح عليه السلام في اعتقاده نبيا مثل موسى عليه السلام، و المثلية هذه تؤكد كون عيسى عبداً رسولاً و بشراً نبيا كما كان موسى عبداً رسولاً و بشراً نبيا.

القسم الثالث عشر :

نصوص تثبت الحمل بالمسيح ثم ولادته ثم نموه التدريجي جسما و عقلا و تثبت له كل أعراض الطبيعة البشرية من الجوع و العطش و التعب و النوم و الخوف و الاضطراب و الألم بل الموت مما يتنزه عنه الباري سبحانه و تعالى

(1) المسيح عليه السلام ينشأ جنينا في رحم أمه مريم عليها السلام التي تحمل به مدة الحمل كاملاً ثم تضعه:

" فصعد يوسف أيضا الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود و عشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة، و هي حبلى. و بينما هما هناك تمّت أيامها لتلد. فولدت ابنه البكر و قمطته و أضجعـته في المذود إذ لم يكن لهما موضع في المنزل "لوقا: 2/ 4 ـ 7.

(2) المسيح عليه السلام يُخْتَن عندما يبلغ ثمانية أيام:

"و لمّا تمّت ثمانية أيام ليختنوا الصبي، سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن" لوقا: 2/1.

(3) المسيح عليه السلام ينمو تدريجيا جسما و علما:

"و أما يسوع فكان يتقدم في الحكمة و القامة و النعمة عند الله و الناس " لوقا: 2/52.

قلت: قوله " يتـقدّم في الحكمة " دليل واضح على عدم ألوهية المسيح إذ لو كان المسيح إلـها متجسدا لكان محيطا، قبل و بعد تجسده المزعوم في رحم العذراء، بكل المعلومات و بالحكمة المطلقة و لما احتاج أن يتقدم فيها! و ثمة فائدة أخرى في هذا النص يجدر التنبيه إليها و هي أن

العلم و معرفة الحكمة ليست من الأمور الجسدية حتى يُقال أن المسيح إنما تدرج فيهما بحسب ناسوته! بل من صفات الروح، مما يؤكد بشرية المسيح المحضة روحا و جسدا و قلبا و قالباً.

(4) المسيح عليه السلام يجوع:

" ثم أصعد يسوع إلى البـرّيـّة من الروح ليُجرَّب من إبليس، فبعد ما صام أربعين نهارا و أربعين ليلة جاع أخيرا " متى: 4 / 1 ـ 2.

" و في الصباح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع. فنظر شجرة تين على الطريق و جاء إليها فلم يجد فيها شيئا إلا ورقا فقط، فقال لها: لا يكن منك ثمرا بعد إلى الأبد " متى: 21/18.

(5) المسيح عليه السلام يعطش :

" بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان " يوحنا: 19/28.

(6) المسيح عليه السلام يتعب:ـ

" و كانت هناك بئر يعقوب، فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر و كان نحو الساعة السادسة " يوحنا:4/6.

(7) المسيح عليه السلام ينام:

" و كان هو في المؤخر على وسادة نائما. فأيقظوه و قالوا له: يا معلم أما يهمك أننا نهلك؟ " مرقس: 4/3.

(8) المسيح عليه السلام يكثر الأكل و الشرب:ـ

" جاء إنسان يأكل و يشرب فتقولون: هو ذا إنسان أكول و شرِّيب محبّ للعـشّارين و الخطاة " لوقا: 7 / 34 ـ 35.

(9) المسيح عليه السلام يبكي:

" قالوا له: يا سيد، تعال و انظر. بكى يسوع!. فقال اليهود: انظروا كيف كان يحبه!" يوحنا: 11 / 34 ـ 36.

(10) المسيح عليه السلام يضطرب و يرتعد نفسيا:

" فلما رآها يسوع تبكي و اليهود الذين جاؤا معها يبكون، انزعج بالروح و اضطرب و قال: أين وضعتموه؟ " يوحنا: 11 / 33 ـ 34.

" فلما قال يسوع هذا، اضطرب بالروح، و شهد و قال: الحق و الحق أقول لكم: إن واحدا منكم سيسلمني " يوحنا: 13/21.

(11) المسيح عليه السلام يكتم حقيقة أمره في أول الدعوة خوفا من شر اليهود و يأمر أتباعه أيضا أن لا يظهِروا أمره بل يكتموا إيمانهم و يكتموا المعجزات التي يرونها اتقاءً من شر اليهود، كما أن المسيح نفسه يفر من اليهود و يتوارى عن أنظارهم هربا من شرّهم:

أ ـ " و لما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة. و إذا أبرص قد جاء و سجد له قائلا: يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني. فمد يسوع يده و لمسه قائلا أريد فاطهر. و للوقت طهر برصه. فقال له يسوع: انظر أن لا تقول لأحد بل اذهب أرِ نفسك

للكاهن و قدِّمْ القربان الذي أمرك به موسى شهادة لهم " متى: 8/ 1 ـ 4. و مثله في مرقس: 1 / 40 ـ 44.

ب ـ " و الأرواح النجسة حينما نَظَـرَتْـه، خرت له و صرخت قائلة: إنك أنت ابن الله. و أوصاهم كثيرا ألا يظهروه " مرقس: 3 / 11 ـ 12.

ج ـ " وقال (يسوع) لهم: و أنتم من تقولون أني أنا؟! فأجاب بطرس و قال: مسيح الله. فانتهرهم و أوصى ألا يقولوا ذلك لأحد. " لوقا: 9 / 20 ـ 21.

د ـ " و كان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل، لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطـلبون أن يقـتلوه " يوحنا: 7/1.

قلت: و من البديهي أنه لو كان إلـها لما خاف من أحد و لوجَّه أبصار و أذهان اليهود بعيدا عنه و لما احتاج للتواري عن أنظارهم.

(12) المسيح عليه السلام يحزن بشدة و يكتئب حتى الموت:

"حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جثـسيماني فقال للتلاميذ: اجلسوا ها هنا حتى أمضي و أصلي هناك. ثم أخذ معه بطرس و ابني زبدي و ابتدأ يحزن و يكتئب. فقال لهم: نفـسي حزينة جدا حتى الموت " متى: 26 / 36 ـ 38.

أقول: و من الجدير بالذكر أن الحزن و الاكتئاب ليسا من صفات الجسد بل من أحوال النفس و الروح، فهنا أيضا يظهر غياب أي طبيعة إلهية للمسيح و تتأكد إنسانيته المحضة الخالصة، و يتضح بطلان تحجج بعضهم بأن صفات

الحاجة و الضعف البشري هذه هي بسبب الجسد الذي كان متدرِّعاً به!

(13) المسيح عليه السلام يجزع و يخاف و يتضرع إلى الله لينقذه من خطر العذاب و الهلاك، فيرسل الله تعالى له ملكا ليثبته و يقويه:

" و خرج و مضى كالعادة إلى جبل الزيتون. و تبعه أيضا تلاميذه. و لما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة. و انفصل عنهم نحو رمية حجر و جثا على ركبتيه و صلى قائلا: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عنِّـي هذه الكأس. و لكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك. و ظهر له ملاك من السماء يقوِّيه. و إذ كان يصلي بأشد لجاجة و صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض " لوقا: 22 / 39 ـ 44.

قلت: أي إلـه هذا الذي يحتاج لملك يقويه؟! فإن قالوا احتاج للملاك بحسب ناسوته، قلنا أفلم يكن لاهوته الحاضر معه دائما ـ حسب ادعائكم ـ مغنياً له عن الحاجة لملاكِ الله ليأتي و يقويه؟؟ و ما هذا الإلـه الذي يصلي و يطلب من الله بأشد تضرع؟! أليست هذه صفات العبد المخلوق المفتقر لله ! حقا إن الإنسان إذا تعصب لعقيدة و نشأ عليها، يعميه ذلك عن رؤية كل آية أو دليل مخالف لها، مهما كان واضحا بينا، وصدق من قال: " حبُّ الشيء يعمي و يصم ".

(14) المسيح عليه السلام يتألم و يصرخ من الألم و يستغيث فلا يغيثه أحد ثم يموت[16] :

أ ـ " من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم و يتألم كثيرا من الشيوخ و رؤساء الكهنة و الكتبة و يقتل، و في اليوم الثالث يقوم " متى: 16 / 21.

ب ـ " فقال (أي المسيح) لهما: أيها الغبيان... أما كان ينبغي أن المسيح يتألَّم بهذا و يدخل إلى مجده؟ " لوقا: 24 / 25 ـ 26.

ج ـ " و نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لـم شبقـتني؟... فصرخ يسوع بصوت عظيم أيضا و أسلم الروح " متى: 27 / 46 ـ 50.

ملاحظة هامة: جاء في سفر أعمال الرسل أن أهالي مدينة لسـترة لما رأوا ما فعله برنابا و بولس من خوارق و معجزات صاحوا قائلين أن برنابا و بولس إلهين! فسارع برنـابـا و بولـس إلـى نفي الألوهية عن نفسيهما و احتجا لذلك بأنهما: " بشـرٌ تحت آلام ".

فانطلاقا من نفس هذا الدليل الذي ساقه برنابا و بولس، تنتفي الإلـهية عن المسيح عليه السلام لأنه هو كذلك كان بشرا تحت آلام، كما بينته النصوص التي ذكرناها أخيرا.

نكتفي بهذا المقدار من الشواهد الإنجيلية النافية لإلـهية المسيح عليه السلام و المثبتة لعبوديته، و ننتقل الآن لاعتراضين للآباء و اللاهوتيين المسيحيين على ما ذكرناه مع الإجابة عنهما

اعتراضـان أساسيان لعلماء المســيحية على الأدلة التي ذكرناها مع الإجابة عليهما :

الاعتراض الأول: يجيب علماء المسيحية عن النصوص الإنجيلية التي استشهدنا بها بأن تلك الصفات و الأعراض البشرية التي تثبتها النصوص للمسيح ـ كصلاته لله أو عدم علمه بالساعة أو دعائه الله و طلبه منه المدد أو نومه و جوعه و عطشه و ألمه و موته... إلخ ـ إنما هي أعراضٌ لناسوته، و يقولون: نحن نقِرُّ و لا ننكر، بل نؤكد الطبيعة البشرية (الناسوتية) الكاملة للسيد المسيح، و نقول أنه إله تأنَّس أي صار بشرا، لذلك لما صار بشرا فلا بد أن تعرض له جميع صفات البشر، هذا في نفس كونه هو بذاته إلها حقا كامل الألوهية، و هذه هي العقيدة التي أقرها مجمع خلقيدونية المسكوني عام 451 م. و التي نصت على أن المسيح أقنوم (أي شخـص) واحد ذو طبيعتين: طبيعة ناسوتية و طبيعة لاهوتية!.

الجواب: أولاً: إن قولكم أن هذه الأعراض البشرية هي بحسب الناسوت و الجسد الذي تدرع به الله الابن، لا يمشي في جميع ما ذكر في الأناجيل عن المسيح من أعراض الضعف الطبيعي البشري، حيث تبين معنا فيما مضى أن بعض هذ الأعراض ليست أعراض جسدية بل من أعراض الروح، فإذا قالوا إنما جاع و عطش و تألم و مات بحسب الجسد الحقيقي الذي تجسد به، فماذا يقولون في نفيه علم الساعة عن نفسه و في جهله بعدم حمل شجرة التين للثمر و في ترقيه التدريجي بالحكمة و في ابتداء بعثته بنزول روح القدس عليه عند معموديته عن يد يوحنا المعمدان؟ هل يقولون أنه كان ناقص العلم بحسب جسده؟! و متى كان الجسد يجهل أو يعلم؟ أم يقولون تدرج بالحكمة بحسب جسده؟؟ فمتى يكون الجسد حكيما؟! أم يقولون أن ابتداء بعثته و رسالته كان بحسب جسده! ومتى كان الجسد هو الذي يبعث بالرسالة؟ أليس الذي يبعث هو الشخص؟ و كذلك خوفه وارتعاده، و حزنه و بكاؤه و اضطرابه في الروح... الخ أليست هذه كلها صفات نفسية معنوية تتنافى

مع كون الشخص إلها أو ذا طبيعة إلهية؟!

و ثانيـاً: إن قولكم أن المسيح عليه السلام شخص واحد ذو طبيعتين ناسوتية و لاهوتية أي أنه هو إلـه خالق رازق كامل، و بنفس الوقت هو نفسه و عينه بشر مخلوق محتاج ناقص أيضا، فضلا عن أنه ادعاء لا دليل على شقه الأول أصلا من الإنجيل و تعاليم المسيح عليه السلام ـ كما سنفصله في الفصل القادم إن شاء الله ـ هو قولٌ لا يُفهَمُ معناه و لا يُعْقَل المراد منه و لا مُحَصَّل له، إذ هو بمثابة قولنا عن شخص واحد بعينه أنه قديم و مُحْدَث بنفس الوقت! أو أنه موجود و معدوم بنفس الوقت! أو أنه عالم بكل شيء و غير عالم بكل شيء بنفس الوقت!.. الخ، و أعتقد أن كل عاقل منصف يحترم العقل الذي زيننا الله تعالى به لا يشك في استحالة مثل هذا الفرض و لا يجادل في أن مثل هذا الكلام لا يعدو السفسطة المحضة و المناقضة الصريحة لأبسط بديهيات العقل و مسلمات المنطق و الوجدان[17] .

هذا و من المفيد ذكره هنا أن إقرار هذه العقيدة ـ أعني عقيدة المسيح الأقنوم (الشخص) الواحد في طبيعتين ناسوتية و لاهوتية ـ الذي تم، كما قلنا، في مجمع خلقيدونية عام 451 م.، إنما كان على أثر جدل واسع بين آباء و أساقفة النصارى حول هذه النقطة و كان قرار ذلك المجمع هو السبب في انشقاق الكنائس الشرقية عن كنيسة روما، أعني الكنيسة القبطية التي رفضت قراره و قالت بالمسيح الشخص الواحد ذي الطبيعة الواحدة فقط [الناشئة في الأصل من طبيعتين] و اتفق مع الأقباط في ذلك اليعاقبةُ في بلاد الشام و الجزيرة (الذين يعرفون بالسريان الأورثوذوكس) و طائفة من الأرمن هم أتباع الكنيسة الغريغورية الأرمنية.

يضاف إلى ذلك، انشقاق النساطرة قبل ذلك أيضا إثر انعقاد

المجمع الأفسسي قبل عشرين عاما من المجمع الخلقيدوني، أي سنة 431م.، ذاك الذي كان قد حكم بوجود: " اتحاد جوهري بين الطبيعتين في المسيح و أن الإله و الإنسان في المسيح هما واحد و بأن مريم والدة الإله "، فقد رفض البطريرك الكبير نسطوريوس، بطريرك القسطنطينية، هذه العقيدة لأنه كان يؤكد على التمايز بين أقنوم (شخصية) الإله و أقنوم (شخصية) الإنسان في السيد المسيح و قال ما مؤداه أنهما أقنومان اتحدا في المسيح، حيث أكد أن مريم لم تلد الله و لا يجوز أن يولد الله بل ولدت يسوع الإنسان، و كذلك لم يكن الله هو الذي صُلِب ـ في اعتقاده ـ و تألم و مات، إذ كيف يتألم الله و يموت؟! بل كان هو يسوع الإنسان. و بالتالي فقد ميَّزَ نسطوريوس في الحقيقة بين أقنومين (شخصيتين) في السيد المسيح و ليس فقط بين طبيعتين، و لذلك فمذهبه على الطرف النقيض تماما من مذهب الأقباط و اليعاقبة، و لذلك كل من المذهبين يكفِّـر الآخر و يلعنه و يتبرأ منه، هذا و قد كان مع نسطوريوس في عقيدته هذه كثيرـ من مسيحيي المشرق الذين عرفوا بالنساطرة أو بطائفة الآشوريين أو الكلدان.

و إنما ذكرت ذلك ليتبين أن هذه العقيدة بالمسيح الشخص الواحد ذي الطبيعتين، عقيدةٌ انقسم في شأنها المسيحيون أنفسهم، و رفضها قسم كبيرـ منهم، مما يدل على أنها صياغة و تفسير اجتهادي للإنجيل و ليست من الأمور الواضحة القطعية فيه و إلا لما حصل حولها كل هذا الخلاف.

و الحقيقة أن كثيرا من أساقفة و كهنة الكنيسة العامة لم يخف عليهم مدى غموض و انغلاق هذه العقيدة، و كونها غير معقولة و لا مفهومة إذا ما أراد الإنسان التعمق فيها و فهمها حق الفهم. لذا نجد أن عديدا منهم يجهدون أنفسهم لتوجيه هذه العقيدة المبهمة و تبريرها عقليا بمحاولة ضرب أمثلة

مشابهة لها من عالم الواقع و قد نشأ من هذه الأبحاث علم قائم بذاته عرف باسم: Christology أي: علم (طبيعة) المسيح! و الحق أن كل ما ذكروه من أدلة عقلية أو أمثلة لتوجيه تلك العقيدة أو الدفاع عنها لا يخلو من تهافت و ضعف و ثغرات كبيرة و قابلية للنقد و النقض، و لولا خشية الإسهاب و الإطالة لذكرت أمثلتهم مع بيان تهافتها و عدم انطباقها على المسألة[18] .

هذا و لشعور الكثيرين منهم بضعف الأمثلة و البراهين التي يطرحونها، رجَّحوا عدم البرهنة و الاستدلال العقلي على تلك العقيدة و اكتفوا بالقول بأنها سر من أسرار الله هو "سرّ التجسُّد" معترفين بأنه طلسم غيبي لا سبيل للعقل البشري المحدود أن يدركه أو يفهمه، لأنه ـ على حد زعمهم ـ من أسرار الربوبية و صفات الباري تقدس و تعالى التي يعجز البشر عن الإحاطة بكنهها و عجائب أفعالها وقدرتها!، و قالوا: إنها مسألة إيمان، و نحن نؤمن بما قاله آباؤنا العظام القدامى لأنهم معصومون مؤيدون من الله، أو بما نصت عليه النصوص المقدسة الإلهامية، بزعمهم، و لا يضرنا بعد ذلك أن لا يستوعب فهمنا هذا السر أو لا يدركه عقلنا!.

و لكن الحقيقة أن هذا لا يحل المشكلة لأن المسألة ليست مسألة أمر "لا يدركه العقل" بل هي مسألة أمر: " يناقض بديهيات العقل"، و فرق كبير شاسع بين الأمرين، ففي حين يمكن قبول الأول و يوجد عقائد من ذلك النموذج في كل دين، لا يمكن قبول الثاني بحال من الأحوال، لأن القول بالمسيح الشخص الواحد بعينه إلهاً كاملاَ و بشراً حقيقياً، أي له طبيعتين، أو لنقل صفتين: اللاهوتية (أي الإلهية) الكاملة و الناسوتية (أي البشرية) الحقيقية بنفس الوقت، بمثابة قولهم أن زيدا نفسه عالم و جاهل بنفس الوقت، أي له صفتي الجهل و العلم بنفس الوقت! أو قادر و عاجز، و مستغن و محتاج بنفس الوقت! أو بمثابة قولنا أن الشكل

الفلاني دائري و مربع بنفس الوقت، أو أن هذا الشيء بعينه موجود و معدوم بنفس الوقت...! و كل هذا مما يحكم صريح العقل ببطلانه و استحالته لأنه جمع بين المتناقضات و نقض لأبسط البديهيات العقلية التي بدون احترامها و الاعتماد عليها لا يقوم برهان على أي شيء في الدنيا.

فشتان شتان بين أمر لا يناقض العقل و لا يتضمن أي استحالة عقلية لكن العقل لا يتمكن من الإحاطة به أو اكتناه حقيقته مثل كنه ذات الله عز و جل أو أزليته أو الأبدية اللانهائية و غير ذلك من مغيبات يؤمن بها كل دين، و بين أمر يتضمن استحالة عقلية و مناقضة لبديهيات العقل و مسلمات المنطق و الوجدان كالقول بشخص و ذات واحدة بعينها لها صفتي الألوهية الكاملة و البشرية الناقصة؟! أي القول بالمسيح الإله ـ الإنسان.

الاعتراض الثاني: أيضا يجيب كثير من أساقفة و علماء اللاهوت المسيحيين عن الجواب السابق بأن الله تعالى لا يستحيل عليه شيء، و ما هو متناقض مستحيل في ذهننا، هو ممكن سهل بالنسبة إليه، و كيف لا و هو الرب الذي هو على كل شيء قدير و الفعّال لما يشاء؟! لذا فلا يعجزه و لا يمتنع عليه أن يتحول بذاته لإنسان حقيقي مخلوق و محتاج تعرض له جميع أعراض الضعف البشري الطبيعية من عدم علم ببعض الأمور و من خوف و احتياج للخالق و جوع و عطش و نوم و تألم و موت... إلخ كل هذا مع احتفاظه التام بألوهيته الكاملة! يقولون: نعم إنه يفعل هذا و أكثر و لا يُسْألُ كيف؟ لأنه على كل شيء قدير.

الجواب: إن هذا الكلام أيضا مردود عقلا و نقلا:

أما عقلا فلأن قدرة الله ـ التي هي بلا شك مطلقة و غير

محدودة ـ إنما تتعلق بالممكنات العقلية لا بالمستحيلات العقلية، فالقدرة مهما كانت مطلقة و لا حدود لها تبقى في دائرة ممكنات الوجود، و لا تتعلق بالمستحيلات، و ليس هذا بتحديد لها، و لتوضيح هذه النقطة نضرب بعض الأمثلة:

نسأل جميع هؤلاء الأساقفة و اللاهوتيين: هل يستطيع الله تعالى أن يخلق إلـها آخر مثله؟ إن قالوا: نعم. قلنا لهم: هذا المخلوق كيف يكون إلـها و هو مخلوق؟ و كيف يكون مثل الله مع أنه حادث في حين أن الله أزلي قديم؟ في الحقيقة إن عبارة " خلق إله " سفسطة و تناقض عقلي لأن الشيء بمجرد أن يُخلَق فهو ليس بإله، فسؤالنا هذا بمثابة سؤالنا هل يستطيع الله تعالى أن يخلق " إلـها غير إله "؟! و بديهي أن الجواب لا بد أن يكون: إن قدرة الله لا تتعلق بذلك، لأن كون الشيء إلـها و غير إله تناقض عقلي مستحيل الوجود و قدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات.

مثال آخر: نسألهم أيضا: هل يستطيع الله تعالى أن يخرِج أحدا حقيقة من تحت سلطانه؟

إن أجابوا بالإيجاب حددوا نفوذ الله تعالى و سلطانه، و إن أجابوا بالنفي، و هو الصحيح، وافقونا بأن قدرة الله المطلقة لا تتعلق بالمستحيلات، لأنه مستحيل عقلا أن يخرج أي مخلوق من سلطان و نفوذ خالقه و موجده.

مثال ثالث: سألني مرة أحد الملحدين فقال: " هل يستطيع ربكم أن يخلق صخرة هائلة تكون من الضخامة بحيث يعجز هو نفسه عن تحريكها "؟ و أضاف متهكِّما: " إن قلت لي نعم يستطيع، فقد أثبت لربك العجز عن تحريك صخرة و هذا دليل على أنه ليس بإله، و إن قلت لي: كلا، لا يستطيع، اعترفت بأنه لا يقدر على كل شيء، و بالتالي فهو ليس بإله "!.

فأجبت هذا الملحد بكل بساطة: نعم، لا يدخل ضمن قدرة الله أن يخلق صخرة يعجز عن تحريكها، لأن كل ما يخلقه الله يقدر على تحريكه، و لكن عدم إمكان تعلق قدرة الله تعالى بخلق مثل هذه الصخرة المفترضة ليس دليلا على عجزه بل ـ على العكس تماما ـ هو دليل على كمال قدرته! لأن سؤالك هذا بمثابة من يسأل: هل يستطيع الله تعالى أن يكون عاجزا عن شيء ممكن عقلا؟ و بديهي أن الإجابة بالنفي لا تفيد تحديد قدرة الله بل تفيد تأكيد كمال قدرته تعالى و تمامها، لأن عدم العجز، عين القدرة و ليس عجزا. تماما كما أنه لو قلنا إن الله لا يمكن أن يجهل أو ينسى شيئا، لا يكون في قولنا هذا إثباتٌ لعجز فيه تعالى أو نقص، بل يكون تأكيداً على كماله تعالى و كلية قدرته و علمه.

إذا فهمت هذه القاعدة جيدا، نعود إلى مسألتنا فنقول: إن رب العالمين و بارئ الأكوان أجمعين غني مطلق و قادر على كل شيء، و حي أزلي أبدي قيوم بل هو منبع كل حياة و مصدر كل وجود، و كل ما عداه قائم به سبحانه و موجود بوجوده، فهو جل شأنه عالم بكل شيء لأنه موجد كل شيء و مشيِّئُ كل شيء، و كل الأشياء لا تتمتع بالوجود إلا بما أنها قائمة بالله تعالى، فكيف يعزب عنه علم شيء؟

و كل هذه الصفات، صفات لازمة لذات واجب الوجود، فهي ليست صفات عرضية و لا مكتسبة حتى يجوز عليها التبدل أو الزوال، لكنها صفات الله الذاتية التي لا يمكن أن تتبدل و لا تزول، فلا يمكن أبدا لعلم الله المطلق أن يتحول إلى جهل و لا أن تتبدل قدرته الكلية إلى احتياج أو عجز، و لا أن تزول عنه صفة الغنى فيصير محتاجا و لا أن تزول عنه صفة الحياة فيطرأ عليه الموت! إذ أن تبدل الصفة الذاتية وزوالها من المستحيلات العقلية لذلك فقدرة الله لا تتعلق به، يعني أن الله تعالى لا يقدر ـ إن صح التعبير ـ أن يصير فعلا هو

نفسه و بنحو حقيقي بشرا ضعيفا ناقص القدرة أو غير كامل العلم أو عرضة للألم و للموت! و بعبارة صريحة لا يمكن أن يصير هو بذاته المسيح الإنسان نفسه.

اللهم إلا إذا قيل أن كل تلك الأعراض البشرية المذكورة عن المسيح في الأناجيل كانت مجرد تظاهر و تمثيل لا حقيقة له في الواقع، لكن مثل هذا الافتراض أمر ترفضه تماما كل الكنائس و المذاهب المسيحية لأن فيه مخالفة صريحة لظواهر الأناجيل أولا، و لأنه يصير هدما لأساس الديانة التي أقاموها على مبدأ فداء الله تعالى للبشر بتقديم ابنه، الإله الذي صار إنسانا، للعذاب و الآلام و الموت الحقيقي الواقعي كفارة لخطايا البشر و تخليصا لهم، إذ لو كانت بشرية المسيح و ما صاحبها من آلام و عذاب و موت ـ حسب اعتقادهم ـ مجرد تمثيل لأنهدمت عقيدة الفداء و الكفارة التي أقامت الكنيسة صرح النصرانية كلها عليه.

و خلاصة الكلام أن الإنجيل أثبت للمسيح أعراض الضعف و النقص البشرية، و الله تعالى لا يمكن و لا يتعلق بقدرته أن يتصف حقيقةً بهذه الأعراض، فالنتيجة أن الله تعالى لا يمكن أن يكون المسيح.

هذا عقلا وأما نقلا فقد أيدت أيضا نصوص الكتاب المقدس ما تحكم به بديهة العقل من أن صفات الله تعالى الذاتية لا تتبدل و لا تتغير و لا تزول، فقد جاء في العهد القديم في سفر النبي ملاخي (الإصحاح الثالث / آية 6) ما نصه: "لأني أنا الرب لا أتغير فأنتم يا بني يعقوب لم تفنوا ".

و كذلك جاء في العهد الجديد في رسالة القديس يعقوب (الإصحاح الأول / 16 ـ 17) ما نصه: " لا تضلوا يا إخوتي الأحباء، فكل عطية صالحة و كل هبة كاملة تنزل من فوق، من عند أبي الأنوار، و هو الذي لا يتغير و لا يدور فيرمي ظلاً

. [19]"

فهذه النصوص تؤكد أن الله تعالى لا يتغير و صفاته لا تتبدل، فسبحان الله تعالى عما يصفون.

----

[1] يقصد بالعهد الجديد: الأناجيل الأربعة، و ما ألحق بها من رسائل لبعض تلامذة المسيح أو تلامذتهم منها أربع عشرة رسالة لبولس اعتبرت إلهامية مقدسة، و أما العهد القديم فهو الاسم الذي أطلقوه على أسفار التوراة و ما ألحق بها من كتب سماوية تالية كالمزامير (أي الزبور) وحكمة سليمان و أسفار نبوية أو تاريخية أخرى اعتبرها اليهود إلهامية مقدسة عددها جميعا 46 سفراً. و النصارى يؤمنون بكلا العهدين علىأنهما وحي من الله و يجعلونهما في كتاب واحد يسمونه " الكتاب المقدس " في حين يؤمن اليهود بالعهد القديم فقط.

[2] الناموس: الشريعة الإلـهية التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام.

[3] متى: 22 / 40. و لوقا: 10 / 25 ـ 28.

[4] و جاء مثله تماما في إنجيل لوقا: 4 / 5 ـ 8.

[5] و مثله أيضا في إنجيل مرقس: 10 / 18، و إنجيل لوقا: 18 / 18 ـ 19.

[6] هذا الشاهد و الذي قبله فقط منقولان عن الترجمة

العربية الجديدة للكتاب المقدس للآباء اليسوعيين (بيروت 1989)، أما الشواهد السابقة فمنقولة كلها من الترجمة التقليدية البروتستانتية القديمة للكتاب المقدس.

[7] السجود أقصى مظاهر التذلل و العبادة لله عز و جل، مما يؤكد عبودية المسيح الخالصة لله تعالى، كما أن هذا يؤكد أيضا أن السجود لله في الصلاة ليس عبادة مختصة بالإسلام بل عبادة واردة في الأديان السابقة أيضا.

[8] متى: 26 / 39 ـ 44. و مثله أيضا في: مرقس: 14 / 32 ـ 42. و لوقا: 22 / 39 ـ 46.

[9] هكذا في النسخة العربية لإنجيل متى (طبعة البروتستانت) و لكن في النسخة المترجمة للغة الإنجليزية و اللغة الفرنسية توجد هنا إضافة لفظ: "و لا الإبن " أي أيضا مثلما ذكر في إنجيل مرقس. و فيما يلي نص العبارة كما جاءت في إنجيل متى من الـ Bible باللغة الفرنسية:

" Pour ce qui est de jour , et de l`heure , personne ne les connait , ni les Anges des cieux , ni Le Fis , mais Le Pere seul “ Matthieu: 24 / 36. (La Sainte Bible: Nouvelle version segond revisee , Paris, 1978).

[10] انظر مرقس : 6 / 1 ـ 6 ، و لوقا : 4 / 16 ـ 24 ، يوحنا : 4 / 44.

[11] هكذا في ترجمة البروتستانت القديمة للكتاب المقدس ، لكن في الترجمة العربية الجديدة التي أخرجتها الرهبانية اليسوعية (بيروت 1989 م.) جاءت هنا لفظة " عبدي " مكان فتاي ، و المعنى واحد كما سيأتي .

[12] سفر أعمال الرسل هو أول الرسائل القانونية المقدسة التي أضيفت للأناجيل الأربعة و هو من تأليف القديس لوقا نفسه و يحكي تاريخ بداية إنتشار الإيمان المسيحي و أعمال و جهود الحواريين (الرسل) في هذا المضمار.

[13] سفر أعمال الرسل هو أول الرسائل القانونية المقدسة التي أضيفت للأناجيل الأربعة و هو من تأليف القديس لوقا نفسه و يحكي تاريخ بداية إنتشار الإيمان المسيحي و أعمال و جهود الحواريين (الرسل) في هذا المضمار.

[14] أعمال الرسل: 8 / 32 ـ 35.(و الترجمة منقولة عن ترجمة الرهبانية اليسوعية للعهد الجديد، بيروت 1989)

[15] حتى أن المسيح جعله رئيس الحواريين و جعله وصيه و القائم بأمر الكنيسة من بعده ،كما جاء في إنجيل متى : 16 / 18 ـ 19 . و إنجيل يوحنا : 21 / 15 ـ 19 .

[16] ملاحظة : نحن نحتجّ على النصارى بما في كتبهم التي يؤمنون بأنها وحي الله ، دون أن يعني هذا أننا نتفق معهم بالضرورة بصحة و إلهامية كل ما جاء فيها ، إذ من البديهي أننا كمسلمين نؤمن بما كشفه الله تعالى العليم الخبير لنا حول حقيقة ما حصل في النهاية للمسيح عليه السلام و هي أنهم " و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن و ما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه و كان الله عزيزا حكيما " النساء / 157 ـ 158 و صدق الله العظيم.

[17] من قوانين الفكر البديهية أن: 1- الشيء هو هو فإن

(أ) هي (أ).

2- الشيء لا يمكن أن يكون هو و ليس هو في آن واحد، فإن (أ) لا يمكن أن تكون (أ) و لا (أ) في نفس الوقت.

3- الشيء لا يمكن أن يكون هو نفسه و آخر معه بنفس الوقت، فإن (أ) لا يمكن أن تكون (أ ب) في آن واحد. و هذه كلها من بديهيات العقل المسلمة، و التنكر لها ينسف جميع المعارف البشرية.

[18] من أراد التوسع في ذلك فليرجع لكتاب "إظهار الحق " لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، بحث: " في إبطال التثليث " أو لكتاب "ما هي النصرانية "؟ تأليف الشيخ محمد تقي عثماني (الباكستاني)، طبع و نشر رابطة العالم الإسلامي، بحث التوحيد في التثليث: من ص 37 إلى ص 72 منه.

[19] من الترجمة العربية الجديدة للعهد الجديد، نشر جمعيات الكتاب المقدس المتحدة،بيروت 1988.

الفصل الثاني

شبهات المؤلهين لعيسى من الأناجيل و الرد عليها بواسطة الأناجيل نفسها

يستند القائلون بـإلـهية سيدنا عيسى المسيح عليه السلام ، أي الذين يدَّعون أنه تجسُّد شخص الابن من الله الواحد ذي الأشخاص الثلاثة (الآب و الابن و روح القدس)، معتبرين المسيح ابن الله المولود منه على الحقيقة لا على المجاز، إلى بعض النصوص المشتبهة من العهد الجديد، و يدعمون استدلالهم أحيانا ببعض آيات التوراة أو العهد القديم التي

يتكلم فيها الله بضمير الجمع، مشيرة ـ بزعمهم ـ لوجود ثلاثة آلهة ضمن الذات الإلـهية!، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

أما ما يستندون إليه من كتاب العهد الجديد فيمكن أن نقسمه إلى آيات في الأناجيل الأربعة، و آيات، أو بتعبير أصح، عبارات من رسائل بولس، وعبارات من رسائل يوحنا الملحقة بالأناجيل.

و نحن في هذا الفصل لن نناقش إلا القسم الأول من مستمسكات القائلين بإلـهية المسيح، أعني تلك الآيات الإنجيلية الواردة في الأناجيل الرسمية الأربعة، سواءً كانت من كلام المسيح عليه السلام نفسه أو كانت نصوصاً تحكي أحواله و خوارق معجزاته، التي اعتبرها آباء الكنيسة القدامى دلائل على إلـهية المسيح عليه السلام، و ذلك لأن الإنجيل و ما بلَّغه عيسى عليه السلام عن ربه، هو فقط الكلام المعصوم الواجب اتباعه، و لن نبحث في أصالة و صحة كل ما ورد عن المسيح في تلك الأناجيل الأربعة، و إن كان لنا، في أصالة بعض ما ورد فيها،كلام كثير، بل سنفترض أن كل ما ورد في الأناجيل صحيح أصيل، و نناقش ما استدلوا به من آياتها التي زعموا أنها تبين إلـهيته عليه السلام.

أما ما عدا كلام المسيح عليه السلام و عبارات الأناجيل، سواء كان كلام بولس أو كلام يوحنا فمع أنه في نظرنا يعبر عن فهمهما و اجتهادهما فحسب و لا يرقى لمرتبة الكلام الإلـهي النقي المعصوم أي ليس له سلطان و حجية الإنجيل، و بالتالي فمهما قالا فليس قولهما بحجة ملزمة، إلا أننا مع ذلك سنخصص الفصل القادم لمناقشة مستمسكاتهم على إلـهية المسيح من رسائل بولس و يوحنا، و نثبت بالشواهد الصريحة القاطعة من نفس رسائل بولس و يوحنا، أنهما ما

كانا يعلمان ألوهية المسيح و لا قالا أبدا أنه الله المتجسِّد، بل أكَّـدا أنه مخلوق خاضع لله. و سنناقش في ذلك الفصل، بعض عبارات بولس و يوحنا المشتبهة التي قد يبدو منها تأليه المسيح و نفنِّدها و نبين حقيقة أمرها.

أما بالنسبة إلى أقوال المسيح عليه السلام و أحواله فإن أهم ما يستدل به القائلون بإلـهية عيسى من نصوص الأناجيل، الأمور التالية :

أ ـ مستمسكاتهم من أقوال سيدنا المسيح عليه السلام :

1) تصريحه مرارا عن نفسه بأنه " ابن ا لله ". تكرر ذلك مرارا في الأناجيل. مثلا في: متى: 27 / 43 و يوحنا: 5 / 19 ـ 26 و يوحنا: 10/ 36 و يوحنا: 17/ 1.

2) قوله مرارا عن الله تعالى " أبي "، تكرر ذلك في الأناجيل كثيرا أيضا، مثلا في: متى: 7/ 21 و 11 / 27، و لوقا: 2/ 49 و 23/ 34 و 46، و يوحنا: 5/ 17 إلى 23 و يوحنا 10 / 18 و 25 و 29 و غير ذلك.

3) قوله عليه السلام ، كما جاء في إنجيل يوحنا (10/30): " أنا و الآب واحد ".

4) قوله عليه السلام الذي جاء أيضا في إنجيل يوحنا (10 / 38): " الآب فـيَّ و أنا فيه " و مثلها قوله عليه السلام: " أنا في الآب و الآب فـيَّ " يوحنا: 14 / 10.

5) قوله عليه السلام : " الذي رآني فقد رأى الآب " يوحنا: 14 / 9.

6) قوله عليه السلام الذي أورده كذلك يوحنا في إنجيله (8 / 23 و 3 / 13): " أنا من فوق... أنا لست من هذا العالم ".

7) قوله عليه السلام ، الذي أورده إنجيل يوحنا أيضا (3/13): " و ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء "

8) عدة أقوال للمسيح عليه السلام صرح فيها أنه كان موجودا قبل أن يأتي إلى هذا العالم، كقوله لليهود: " قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن " يوحنا 8 / 58 أو قوله في مناجاته لله تعالى: " بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم " يوحنا: 17 / 5.

9) قوله عليه السلام عن نفسه أنه: " ربُّ داود " عليه السلام و ليس بابنه. كما في لوقا: 20 / 41 ـ 43.

10) قوله عليه السلام عن نفسه: " و لكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا " متى: 9 / 5. و نحوه: مرقس: 2 / 5 ـ 10.

11) قول توما (تلميذ المسيح) للمسيح عليه السلام: "ربي و إلـهي " و أقره عيسى على ذلك و لم يعترض عليه. يوحنا: 20 / 28.

و هناك مستمسك آخر هام لهم، بل لعله من أهم مستمسكاتهم، و هو افتتاحية إنجيل يوحنا التي يقول (يوحنا) فيها: " في البدء كان الكلمة و الكلمة كان عند الله و كان ا لله الكلمة "! و لكن لما كانت هذه العبارة ليوحنا مؤلف الإنجيل الرابع و ليست للمسيح عليه السلام نفسه، فقد أرجأتُ مناقشتها للفصل القادم عند مناقشة شبهاتهم من

عبارات يوحنا في رسائله.

هذا و لعلك أيها القارئ الكريم لاحظت أن أغلب العبارات المذكورة أعلاه الموهمة لإلـهية المسيح عليه السلام، باستثناء التعبير عن نفسه بابن الله و اعتباره الله تعالى أباه، إنما هي في إنجيل يوحنا فقط دون سائر الأناجيل، و لا عجب، فقد صرَّح يوحنا نفسه أنه ما كتب إنجيله إلا: " لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله و لتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه " يوحنا: 20 / 30 ـ 31. و هذا موضوع لنا تعليق عليه في الفصل القادم إن شاء الله لدى مناقشتنا لشبهاتهم من رسائل و عبارات يوحنا.

ب ـ أدلتهم من أحوال سيدنا المسيح عليه السلام :

(1) ولادته الإعجازية من غير أب.

(2) معجزاته العظيمة، لا سيما إحياؤه الموتى و شفاؤه ذوي العاهات الخَلْقية كأعمى الولادة و الأبرص.. إلخ و إطعامه الجم الغفير من الطعام القليل و نحوه.

(3) قيامه حيا من الأموات.

(4) سجود بعض تلاميذه له كسجود مريم المجدلية و مريم أم يعقوب و الأعمى الذي شفاه و غيرهم له عليه السلام و إقراره إياهم على ذلك و عدم اعتراضه، مع أن السجود عبادة لا تكون إلا لله، كما قال هو عليه السلام بنفسه: " لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد و إياه وحده تعبد " متى: 4 / 10، فقالوا إنَّما كان يُقِرُّهم على ذلك، لكونه إلـههم فعلا!. تعالى الله عما يشركون.

هذه هي جميع مستمسكاتهم على إلهية المسيح من الأناجيل. نبدأ الآن بمناقشة هذه الأدلة واحدا واحدا مناقشة موضوعية، تعتمد على الأناجيل نفسها، لنرى هل أنها فعلا تثبت إلـهية عيسى عليه السلام أم لا؟؟

أ ـ الشبـهات الـقولية :

الشبهة الأولى

إطلاق عبارة "ابن الله " على المسيح عليه السلام في الإنجيل.

بسط هذه الشبهة:

لقد تكرر وصف المسيح بابن الله في الإنجيل كثيرا و جاء ذلك على أنحاء متعددة :

(1) منها إطلاق عيسى نفسه على نفسه لقب " ابن الله "، و هذا أكثر ما جاء في إنجيل يوحنا، كما في آخر قصة الأعمى من الولادة الذي شفاه المسيح عليه السلام في إنجيل يوحنا: 9/ 35 ـ 37 و 5/ 19 ـ 26 و 10/ 36 و 17/ 1.

(2) و منها قول الحواريين لعيسى عليه السلام:" إنك حقا ابن الله " أو قولهم: " أنت هو المسيح ابن الله الحي"، كما في إنجيل متى: 14 / 33، و 16 / 16.

(3) و منها مناداة الله تعالى في السماء: " هذا ابني الحبيب

الذي عنه رضيت " كما في إنجيل متى: 3 / 17 و 17 / 5.

(4) و منها إطلاق جبريل لقب " ابن العلي "و " ابن الله " على المسيح، كما في إنجيل لوقا: 1 / 32 و 35.

قالوا: فإذا ثبت أن المسيح هو ابن الله، ثبتت إلـهيته، لأن الابن لا يكون إلا من نفس جوهر أبيه الذي ولد منه!.

الإجابة عن هذه الشبهة :

رغم أن هذه الشبهة، قد تبدو، بالنسبة للذين ليس لهم اطلاع على الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد، لأول وهلة شبهة قوية، لكن بمجرد مطالعة الأناجيل و الملاحظة المقارنة لموارد استعمال عبارة " ابن الله " فيها، بل في الكتاب المقدس بشكل عام، سواء منه العهد الجديد أو العهد القديم، يتبين أنها شبهة ضعيفة جدا، و أن مراد الكتاب المقدس من هذه العبارة معنىً مجازيٌّ تماما هو: الصالح البار المقرب من الله و المحبوب من الله، أو رسول الله ومختاره المجتبى. و فيما يلي توضيح ذلك من عدة وجوه :

الوجه الأول: مبدئيا نقول أنه لا يمكن أن يكون المقصود من عبارة " ابن الله " المستخدمة بحق عيسى بن مريم عليه السلام معنى حقيقيا، لأن ذلك سيتعارض مع إطلاق عبـارة " ابن الإنسان " و عبارة " ابن داود " كثيرا على المسيح أيضا، كما مر معنا في القسم الحادي عشر من الفصل الماضي، إذ من البديهي أنه لا يمكن للشخص الواحد نفسه أن يكون ابنا لأبوين بالمعنى الحقيقي!! و لا عبرة لقولهم أنه ابن الإنسان من ناحية ناسوته و ابن الله من ناحية لاهوته، لأنه سبق و بينا استحالة أن يكون شخص واحد بعينه و بذاته: بشراً و إلهاً بنفس الوقت!. فلا بد أن تكون البنوَّة في إحدى

التعبيرين مرادة حقيقة أي هي بنوة التولُّد، و في الآخر مرادة مجازا عن معنى معنوي آخر. فنقول أن الأدلة البينة التي فصلناها في الفصل الماضي و ما سيأتي في هذا الفصل كافية لبيان أن بنوته للإنسان هي البنوّة المرادة بمعناها الحقيقي أما بنوته لله فذات معنى مجازي سيأتي توضيحه.

الوجه الثاني: لدى تتبعنا لاستخدام عبارة " ابن الله " في الأناجيل نرى أن هذا التعبير يقصد به معنى الصالح البار الوثيق الصلة بالله و المتخلِّق بأخلاق الله. فقد جاء في إنجيل مرقس (15/ 39): "و لما رأى قائد المائة، الواقف مقابله، أنه صرخ هكذا، و أسلم الروح، قال: حقا كان هذا الإنسان ابن الله". نفس هذا الموقف أورده لوقا في إنجيله فنقل عن قائد المائة أنه قال عن المسيح: "بالحقيقة كان هذا الإنسان با رًّ اً "، فما عبر عنه مرقس في إنجيله بعبارة " ابن الله " عبر عنه لوقا بعبارة "بارّاً "، مما يبين أن المراد من عبارة ابن الله ليس إلا كونه بارا صالحا.

و بهذا المعنى كان يستخدم اليهود ـ مخاطَبي المسيح ـ لفظة " ابن الله "، التي لم تكن غريبة عليهم، بل شائعة و مستخدمة لديهم بالمعـنـى الذي ذكرناه، و لذلك نجد مثلا، أن أحد علماء اليهود و اسمه " نتنائيل"، لما سمع من صديقه فيليبس، عن نبيٍّ خرج من مدينة الناصرة، استنكر ذلك في البداية، لكنه لما ذهب ليرى عيسى بنفسه، عرفه عيسى {.. و قال فيه: " هو ذا اسرائيلي خالص لا غش فيه "، فقال له نتنائيل: " من أين تعرفني؟ "، أجابه يسوع: " قبل أن يدعوك فيليبس و أنت تحت التينة، رأيتك! " فأجابه نتنائيل: " رابِّي! أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل "} (يوحنا 1/ 45 ـ 49)، و مما لا شك فيه، أن مقصود نتنائيل، كإسرائيلي يهودي موحد، عالم بالكتاب المقدس، من عبارة ابن الله هذه، لم يكن: أنت ابن الله المولود منه و المتجسد!

و لا مقصوده: أنت أقنوم الابن المتجسد من الذات الإلهية!! لأن هذه الأفكار كلها لم تكن معروفة في ذلك الوقت، و لا تحدث المسيح نفسه عنها، لأن هذه الحادثة حدثت في اليوم الثاني لبعثة المسيح فقط، بل من الواضح المقطوع به أن مقصود نتنائيل من عبارته أنت ابن الله: أنت مختار الله و مجتباه، أو أنت حبيب الله أو من عند الله، أو أنت النبي الصالح البار المقدس، و نحو ذلك. هذا و مما يؤكد ذلك، أن لقب " ابن الله " جاء بعينه، في الإنجيل، في حق كل بارٍّ صالح غير عيسى عليه السلام، كما استعمل " ابن إبليس" في حق الإنسان الفاسد الطالح [1].

ففي إنجيل متى (5/ 9): " طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناءُ الله يُدْعَوْنَ "، و فيه أيضا: " و أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، و صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، و يطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات " متى (5 / 44 ـ 45).

و في إنجيل لوقا (6 / 35): "بل أحبوا أعداءكم و أحسنوا و أقرضوا و أنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما و تكونوا بني العَـلِيِّ فإنه منعم على غير الشاكرين و الأشرار ".

فسمَّى الأبرار المحسنين بلا مقابل المتخلِّقين بـخُلُقِ الله بـِ " أبناء العلي " و " أبناء أبيهم الذي في السموات ".

و في إنجيل لوقا أيضا يطلِق المسيح عليه السلام على أهل الجنة عبارة " أبناء الله" فيقول: " و لكن الذين حُسِبوا أهلا للحصول على ذلك الدهر و القيامة من الأموات لا يُـزوِّجون و لا يُـزَوَّجون. إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضا لأنهم مثل الملائكة و هم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة "لوقا:20 / 35ـ 36

و في الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا يقول: " و أما الذين قبلوه (أي قبلوا السيد المسيح)، و هم الذين يؤمنون باسمه، فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء الله " 1 / 12.

كل هذا مما يوضح أنه في لغة مؤلفي الأناجيل و اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح عليه السلام، يُعَبَّرُ بِـ: " ابـن الله " عن كل: امرء بار صالح وثيق الصلة بالله مقرب منه تعالى يحبه الله تعالى و يتولاه و يجعله من خاصته و أحبابه، و وجه هذه الاستعارة واضح، و هو أن الأب جُـبِلَ على أن يكون شديد الحنان و الرأفة و المحبة و الشفقة لولده، حريصا على يجلب له جميع الخيرات و يدفع عنه جميع الشرور، فإذا أراد الله تعالى أن يبين هذه المحبة الشديدة و الرحمة الفائقة و العناية الخاصة منه لعبده فليس أفضل من استعارة تعبير كونه أبا لهذا العبد و كون هذا العبد كابن لـه.

و من هذا القبيل ـ في تراثنا الإسلامي ـ مثلا: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: " أهل القرآن أهل الله و خاصته " [2] فليس المراد بعبارة " أهل الله " معناها الحقيقي لأن أهل الشخص: هم عشيرته و ذوو قرباه و الله تعالى يتنزه عن العشيرة و ذوي القربى و الصاحبة و الولد، بل هذه استعارة تشبيهية المراد منها أن أهل القرآن هم أحباب الله و أولياؤه و مقربوه، الذين لهم من الله عناية خاصة و محبة وثيقة كالتي تكون بين المرء و أهله و ذوي قرباه.

و قد جاء في بعض رسائل العهد الجديد ما يوضح هذا المجاز أشد الإيضاح و لا يترك فيه أي مجال للشك أو الإبهام. فقد جاء في رسالة يوحنا الأولى (1/5ـ2) قوله: " كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله. و كل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضا. بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله و حفظنا وصاياه ". و في آخر نفس هذه الرسالة: " نعلم أن كل من ولد من الله لايخطئ بل المولود

من الله يحفظ نفسه و الشرير لا يمسه " 5/18. و أيضا في الإصحاح الثالث من نفس تلك الرسالة، يقول يوحنا: "كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيَّة لأن زرعه يثبت فيه و لا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله، بهذا أولاد الله ظاهرون و أولاد إبليس... الخ " رسالة يوحنا الأولى: 3/ 9ـ 10.

و في الإصحاح الرابع من تلك الرسالة أيضا: " أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضا لأن المحبة هي من الله و كل من يحب فقد ولد من الله و يعرف الله " رسالة يوحنا الأولى: 4/7.

و في رسالة بولس إلى أهل رومية (8 / 14 ـ 16): "لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولـئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله".

و في رسالة بولس إلى أهل فيليبس (2 / 14 ـ 15):
"افعلوا كل شيء بلا دمدمة و لا مجادلة. لكي تكونوا بلا لوم و بسطاء أولاد الله بلا عيب في وسط جيل معوج و ملتو تضيئون بينهم كأنوار في العالم".

ففي كل هذه النصوص استعملت عبارات: ابن الله، أبناء الله، أولاد الله، و الولادة من الله، بذلك المعنى المجازي الذي ذكرناه.

الوجه الثالث : لقد جاء أيضا في العهد الجديد و القديم، إطلاق عبارة " ابن الله " و أحيانا " بكر الله " أي ابنه البكر، على بعض أنبياء بني إسرائيل الذين أنعم الله عليهم و فضَّلهم ـ في ذلك الوقت ـ على العالمين، و فيما يلي ذكر الشواهد على ذلك:

(1) في الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا، في بيان نسب المسيح عليه السلام، جاء أنه: " و هو ـ على ما كان يُـظَنُّ ـ ابن يوسف ابن هالي ابن..........(و ساق النسب كله إلى أن وصل لقوله) ابن آدم ابن الله! " لوقا: 3/23 و 38.
فاعتبر آدم ابن الله، و واضح أنه ليس مقصوده البنوَّة الحقيقية، و لا أحد من المسيحيين يعتقد بإلـهية آدم و لله الحمد!، بل إنه لما كان آدم بغير أبوين و كان وثيق الصلة بالله تعالى نسبه إلى الله و أطلق عليه هذا اللفظ مجازا.

(2) و في سفر الخروج من التوراة (4/ 22 ـ 23) يقول الله تعالى لموسى عليه السلام: " فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابـنـي البـكـر، فقلت لك أطلق ابـنـي ليعبدني فأبيت أن تطلقه. ها أنذا أقـتل ابنك البكر"

(3) و في سفر صموئيل الثاني، يقول الرب لعبده داوود: "متى كملت أيامك و اضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبت مملكته. هو يبني بيتا لاسمي و أنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أبا و هو يكون لي ابنا " صموئيل الثاني: 7/12ـ14.

(4) و في سفر إرميا، يقول الله تعالى: " لأني صرت لإسرائيل أبا، و أفرايم هو بكري " إرميا: 31/9.

(5) و جاء في سفر مزامير داود عليه السلام، قول الله تعالى لعبده داود: " و أجعلُ على البحر يده و الأنهار يمينه. و هو يدعوني أبي أنت. إلـهي و صخرة خلاصي. و أنا أيضا أجعله بكراً على من ملوك الأرض " المزامير: 89/ 25ـ 27.

قلت: ففي الشاهدين الأخيرين أطلق الله تعالى على أفرايم و داود عليهما السلام لفظ "بِكري "، و في الشاهد رقم 2

أطلق على إسرائيل (أي يعقوب عليه السلام) لقب " ابني البكر "و في الشاهد رقم 3 اعتبر سليمان أو المسيح عليهما السلام (حسب تفسير البشارة) ابناً له كذلك. فلو كان إطلاق مثل هذه العبارة، أعني عبارة البنوة لله، على نبي عظيم، يفيد إلـهيته لكان كل من اسرائيل و داود وأفرايم و سليمان عليهم السلام آلهة!! بل أحق بالألوهية من عيسى عليه السلام، لإن الابن البكر أقرب للأب من غيره و أحق بالإكرام بحسب الشرائع السابقة و بحسب العرف الرائج بين الناس في احترام الابن البكر!.

و أما إطلاق عبارة " أبناء الله و بناته " أو " أولاد الله " أو " ابني البكر" على جميع بني إسرائيل فقد تكرر مرات عديدة في كتاب " العهد القديم " و فيما يلي بعض النماذج على ذلك:

(1) في سفر التثنية من التوراة خطاباً لبني إسرائيل: " أنتم أولاد للرب إلـهكم " تثنية: 14/1.

(2) و في نفس السفر: " فرأى الرب و رذل من الغيظ بنيه و بناته" تثنية: 32/19

(3) و في سفر المزامير (الزبور) لداود عليه السلام: " أنا قلت إنكم آلهة، و بني العلـيِّ كلكم. لكن مثل الناس تموتون و كأحد الناس تسقطون " المزامير 82 / 6 ـ 7.

(4) و في سفر إشعيا يقول الرب عن بني إسرائيل: " ربيت بنين و نشَّأتهم. أما هم فعصوا علي " إشعيا: 1/2.

(5) و فيه أيضا: "و قد قال حقا إنهم شعبي، بـنـون لا يخونون " إشعيا: 63/8.

(6) و في سفر هوشع: " لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال و لا يعد و يكون عوضا عن أن يقال لهم لستم شعبي يقال لهم أبناء الله الحي" هوشع: 1/ 10.

(7) و في نفس السفر أيضا: " لما كان إسرائيل غلاما أحببته و من مصر دعوت ابني" هوشع: 11 / 1.

أعتقد أن كل هذه الشواهد تكفي للاقتناع بأن لفظ " ابن الله الحي " أو " ابني " أو " أولاد الله " لا يراد منها ـ في لغة الكتاب المقدس ـ البنوة الحقيقية و الولادة الواقعية بالمعنى الحرفي للكلمة، و إلا لكان جميع بني إسرائيل آلهة! و إنما المراد بها نوع من العلاقة المعنوية الوثيقة التي تدل على اعتناء و اختصاص و عطف من الله بمن أُطْلِقَ عليهم أبناؤه أو أولاده، فهي في غاية الأمر بنوَّة معنوية فحسب [3] .

و لذلك ورد، في العهد القديم، إطلاق لفظ: " أبناء الله " على الملائكة أيضا، كما جاء في سفر النبي أيوب عليه السلام مثلا: " و اتفق يوما أن دخل بنو الله ليمثلوا أمام الرب و دخل الشيطان أيضا بينهم " أيوب:1/6، و مثله في: 2/1. و طبعا لا أحد من النصارى و لا اليهود يعتقد ببنوة الملائكة الحقيقية لله عز و جل و لا ببنوة أي من الأنبياء لله عز و جل بالمعنى الحقيقي، بل يأخذون هذه البنوة على معنى مجازي محض. و كان ينبغي لهم أن يفهموا تعبير ابن الله الذي أطلق على المسيح بمقتضى نفس هذه اللغة، لغة الكتاب المقدس، التي نشأ عليها المسيح نفسه و كان يخاطب اليهود الذين تشبعوا بها لأنها لغة كتابهم المقدس (العهد القديم) الذي يقرؤنه على الدوام و يدرسونه، على نفس ذلك المعنى المجازي، أي بأنها بنوة اختصاص و محبة و ولاية و نحو ذلك، لكن للأسف قبلوا بهذا المعنى المجازي

في كل مكان إلا هنا، أضلهم الشيطان، فأخذوه على معنى حرفي و نسبوا لله تعالى الولادة الحقيقية جاعلين المسيح ابنه الذي خرج منه حقيقة!! تعالى الله عن التولد و الولادة و أن يكون له ولد أو نظير أو معين أو شريك.

و الحقيقة أن استخدام تعبير الابن و الولد بالمعنى المجازي هو من الاستخدامات الشائعة في كل لغة، فمثلا في لغتنا العربية العامية كثيرا ما نقول هذا ابن حلال أو ذاك ابن حرام، أو نقول هذا ابن مصلحة، أو نقول يا أبناء مدينة كذا... الخ و بديهي أنه لا شيء من الحلال أو الحرام و المصلحة أو المدينة يلد بالمعنى الحقيقي! و إنما المقصود نوع من الصلة بين ما سُمِّيَ ابناً و ما جُعِلَ أباً له، وكذلك كان في اللغة القديمة، لذلك نجد في العهد الجديد هذا التوسع في الاستخدام المجازي للفظ " الابن " واضحا، ففي إنجيل متى مثلا (23/15) يطلق المسيح عليه السلام على المستحق لدخول النار عبارة: " ابن جهنم"، و على أهالي أورشليم عبارة " أولاد أورشليم "(متى:23/37)، و على أهل هذه الدنيا عبارة "أبناء الدهر" (لوقا: 20/34)، و على المستحقين لعالم القيامة و الحياة الأبدية الجديدة عبارة:" أبناء القيامة " (لوقا: 20/36)، كما أن بولس يخاطب في رسالته إلى أهل تسالونيكي (5/5) أهالي تلك المدينة فيقول: "جميعكم أبناء نور و أبناء نهار ".

فهل يجوز، بعد كل ذلك، الإصرار على تفسير عبارة: " ابن الله" المطلقة على المسيح، تفسيرا حرفيا رغم كل هذه الشواهد اللغوية و الأدلة العقلية و النقلية على الاستخدام المجازي لهذه اللفظة في لغة الكتاب المقدس التي مرَّت؟

فإن قيل: إنما سمى الإنجيل عيسى عليه السلام بـ "الابن الوحيد " [4] لله مما يفيد أن بنوَّته لله بنوَّة فريدة متميزة لا يشاركه فيها أحد فهي غير بنوَّة أنبياء بني إسرائيل، لِـلَّه،

وغير بنوَّة المؤمنين الأبرار الصالحين عموما أو بنوَّة شعب بني إسرائيل أو الملائكة، لله.. الخ، فلا يبقى إلا أنها كذلك لأنها بنوَّة حقيقية جوهرية.

فجوابه: إن عبارة "الابن الوحيد " في الكتاب المقدس لا تعني بالضرورة الانفراد و الوحدانية الحقيقية بل قد يقصد بها الحظوة الخاصة و المنزلة الرفيعة، يدل على ذلك أن سفر التكوين من التوراة يحكي أن الله تعالى امتحن إبراهيم عليه السلام فقال له: "يا إبراهيم! فقال: هأنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه، اسـحق، و اذهب إلى أرض المـريا... " تكوين: 22/1ـ2.

فأطلق الكتاب المقدس على اسحق لقب الابن الوحيد لإبراهيم، هذا مع أنه، طبقا لنص التوراة نفسها، كان اسماعيل قد وُلِد لإبراهيم، قبل إسحق، كما جاء في سفر التكوين: " فولدت هاجر لأبرام ابنا و دعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر: اسماعيل. كان أبرام ابن ست و ثمانين لما ولدت هاجر اسماعيل لأبرام " تكوين: 16 / 15 ـ 16، ثم تذكر التوراة أنه لما بلغ إبراهيم مائة سنة بشر بولادة إسحـق (سفر التكوين: 17 / 15 إلى 20)، و بناء عليه لم يكن اسحق ابناً وحيداً لإبراهيم بالمعنى الحقيقي للكلمة، مما يؤكد أن تعبير " الابن الوحيد " لا يعني بالضرورة ـ في لغة الكتاب المقدس ـ معنى الانفراد حقيقة، بل هو تعبير مجازي يفيد أهمية هذا الابن و أنه يحظى بعطف خاص و محبة فائقة و عناية متميزة من أبيه، بخلاف سائر الأبناء، و لا شك أن محبة لله تعالى للمسيح و عنايته به أرفع و أعلى و أعظم من عنايته بجميع الملائكة و جميع من سبقه من الأنبياء لذا صح إطلاق تعبير: " ابني الوحيد" عليه.

الشبهة الثانية

تأكيد عيسى عليه السلام مراراً على أن الله تعالى " أباه "

بسط هذه الشبهة :

جاء في مواضع عدة من الإنجيل تعبير المسيح عليه السلام عن الله سبحانه و تعالى: بـِ "أبي" أو "الآب" فقالوا إن هذا يدل ـ حسب ظاهره ـ على أن الله تعالى أبو عيسى عليه السلام الحقيقي و بالتالي فعيسى مولود منه فهو إله مثل أبيه! تعالى الله عما يصفون. و فيما يلي بعض آيات الإنجيل التي ورد فيها هذا التعبير:

(1) في إنجيل متى: " ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات " متى: 7 / 21.

و فيه أيضا: " كل شيء قد دفع إلي من أبي و ليس أحد يعرف الابن إلا الآب و لا أحد يعرف الآب إلا الابن و من أراد الابن أن يعـلن له " متى: 11/27.

و فيه أيضا: " و أما ذلك اليوم و تلك الساعة فلا يعلم بهما أحد و لا ملائكة السموات إلا أبي وحده " متى: 24 / 36.

(2) و في إنجيل لوقا: " فقال يسوع: يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون " لوقا: 23 / 34.

و فيه أيضا: " و نادى يسوع بصوت عظيم و قال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي " لوقا: 23 / 46.

ـ و تكرر هذا التعبير كثيرا في إنجيل يوحنا حتى لا تكاد تخلو منه صفحة منه.

الإجابة عن هذه الشبهة:

أولا: حسب الإنجيل نفسه، لم يكن عيسى يعتبر الله تعالى أباه لوحده فقط، بل كان يعتبره أيضا أبَ جميع المؤمنين أيضا، فإذا أطلق على الله تعالى عبارة " أبي" فقد أطلق مرارا كذلك عبارة: " و أبيكم "، بلا أي فرق، بل علَّم المؤمنين أن يبدؤا صلاتهم اليومية بقولهم: " أبانا الذي في السموات ليتقـدَّس اسمك.. الخ " [5] ، فإذا كانت أبوة الله لعيسى تدل على إلـهيته فإذن أبوة الله لنا تدل على إلـهيتنا نحن كذلك، و هذا أمر باطل باتفاق الجميع، فثبت أن هذه الأبوة هي أبوة معنوية، أي أبوة بالمعنى المجازي، معناها أن الله تعالى هو بالنسبة للمسيح عليه السلام و للمؤمنين، بمنزلة الأب العطوف في رحمته و رأفته و عنايته الفائقة و شفقته على أبنائه و إرادته الخير لهم، تماما كما هو المراد من بنوَّة عيسى و الأبرار الصالحين لله تعالى الذي شرحناه في جواب الشبهة الأولى.

و لمزيد من التوضيح نسوق فيما يلي بعض الشواهد الإنجيلية :

(1) في إنجيل يوحنا (20/17): " قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. و لكن اذهبي لإخوتي و قولي لهم: إني أصعد إلى أبي و أبـيكم و إلـهي و إلـهكم ".

قلت: ففي هذا النص ساوى المسيح بين أبوَّة الله له و أبوَّته لنا.

(2) و في إنجيل متى (5/45 و 48): "... و صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم لكي تكونوا أبناء أبـيكم الذي في السموات... فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل... ".

(3) و في الإصحاح السادس فقط من إنجيل متى يتكرر لفظ الأب مضافا للمؤمنين إثنا عشر مرة حيث يقول المسيح: "و أما أنت فمتى صليتَ فادخل إلى مخدعك و أغلق بابك و صلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية، و حينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم فإنهم يظنون أنهم بكثرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تتشبهوا بهم. لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السموات، ليتقدَّس اسمك... إلخ "

(4) و في إنجيل لوقا (6/36): " فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم "

فلو كانت أبوَّة الله لشخص تفيد إلـهيته للزم ـ حسب هذه النصوص الإنجيلية ـ أن يكون كل المؤمنين آلهة! فإذا بطل هذا اللازم بطل ملزومه.

ثانيا: في الكتاب المقدس، ليس سيدنا عيسى عليه السلام وحده فقط الذي يعتبر الله تعالى " أباه " مخاطبا إياه بِـعبارة: " أبي " أو " يا أبتي " أو " يا أبتاه "، بل مثل هذا التعبير بعينه جاء على لسان بعض الأنبياء السابقين كسيدنا داود و سيدنا سليمان و سيدنا إشعيا عليهم السلام، و فيما يلي ذكر هذه الشواهد:

(1) في زبور داود عليه السلام المسمى بسفر المزامير (89/20ـ21 و26ـ27): " وجدتُ داود عبدي. بدهن قدسي

مسحته. الذي تثبت يدي معه. أيضا ذراعي تشدِّده... هو يدعوني أبي أنت، إلـهي و صخرة خلاصي. أنا أيضا أجعله بكرا على ملوك الأرض ".

(2) و في سفر صموئيل الثاني (7/14) أن الله تعالى يبشِّر عبده داود عليه السلام بسليمان عليه السلام فيقول: " أقيم من يخـلُفُكَ، من نسلك الذي يخرج من صلبك، و أثبـِّت ملكه فهو يـبـني بيتا باسمي و أنا أثبـِّت عرش ملكه للأبد، أنا أكون له أبـاً و هو يكون لي ابنـاً "

(3) و في سفر إشعيا، يخاطب إشعيا الله تعالى بقوله: "... فإنك أنت أبونا. إبراهيم لم يعرفنا. و إسرائيل لم يعلم بنا. أنت يا رب أبـونا. منذ الأزل اسمك فادينا " [6] إشعيا: 63 / 16.

(4) و فيه أيضا: "... و الآن يا رب أنت أبـونـا. نحن الطين و أنت جابلنا و كلنا عمل يديك " إشعيا: 64 / 8.

ففي لغة الكتاب المقدس، درج الأنبياء على اعتبار الله تعالى أباهم لا على المعنى الحقيقي بل المجازي، فكذلك كان مقصود المسيح عليه السلام ـ الذي نشأ على تعاليم ولغة الكتاب المقدس و كان يخاطب اليهود القارئين لذلك الكتاب ـ من استخدامه هذا التعبير بعينه.

الشبهة الثالثة

قول المسيح عليه السلام : " أنا و الآب واحد "

و هذه العبارة التي جاءت في إنجيل يوحنا (10/ 30)، كثيرا ما يستند إليها المبشرون لإثبات إلـهية المسيح، و يطنطنون

بها كثيرا معتبرين إيَّاها دليلا صريحا، و ما هي بذلك على الإطلاق، كما سيتبين الآن بوضوح إن شاء الله.

الإجابة عن هذه الشبهة :

كمقدمة نقول إن أي عبارة جاءت في وسط كلام ما، إذا أردنا أن نفهمها على وجهها الصحيح و ندرك المقصود منها بالضبط، لا يجوز أن نقتطعها من سياقها الذي جاءت فيه و نفصلها عمَّا سبقها و ما يلحقها، بل لا بد من فهمها ضمن سياق الكلام الذي جاءت فيه. لذا لا بد لنا أن ننظر تمام كلام المسيح عليه السلام الذي ناقش به اليهود و الذي جاءت هذه العبارة في وسطه:

جاء في إنجيل يوحنا (10/ 22 ـ 36):

" و كان عيد التجديد في أورشليم و كان شتاء. و كان يسوع يتمشَّى في الهيكل في رواق سليمان. فاحتاط به اليهود و قالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرا. أجابهم يسوع: إني قلت لكم و لستم تؤمنون. الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي و لكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم. خرافي تسمع صوتي و أنا أعرفها فتتبعني. و أنا أعطيها حياة أبدية و لن تهلك إلى الأبد و لا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل و لا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا و الآب واحد.

فتناول اليهود أيضا حجارة ليرجموه. أجابهم يسوع: أعمالا كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي، بسبب أي عمل منها ترجمونني؟ أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك و أنت إنسان تجعل نفسك

إلـها. أجابهم يسوع: أليس مكتوبا في ناموسكم " أنا قلت إنكم آلـهة"؟ فإن قال آلهة لأولـئك الذين صارت إليهم كلمة الله ـ و لا يمكن أن ينقض المكتوب ـ فالذي قدَّسه الآب و أرسله إلى العالم، أتقولون له إنك تجدِّف لأني قلت إني ابن الله؟ "

قلت: في البداية ينبغي أن نوضح أن قول المسيح عليه السلام: أليس مكتوبا في ناموسكم: أنا قلت إنكم آلهة، هو إشارة منه لآيتين وردتا في سفر المزامير الموحى لداود عليه السلام من كتاب العهد القديم و هما الآيتان 6 و 7 من المزمور 82، و تمام الآيتين كما يلي: " أنا قلت إنكم آلهة و بنو العليِّ كلكم، لكن مثل الناس تموتون و كأحد الرؤساء تسقطون ".

فالآن نقول: أولا: لو تأملنا ما قاله المسيح عليه السلام لليهود بعد اعتراضهم على قوله: " أنا و الآب واحد " لتبين لنا بكل وضوح مراده عليه السلام من هذا القول.

و تفصيل ذلك أن اليهود لما أنكروا على المسيح عليه السلام قوله: " أنا و الآب واحد" لأنهم ظنوا أن المسيح أراد منه معناه الحرفي الظاهر و هو جعل نفسه عين الله تعالى، تبرَّأ المسيح من إرادة ذلك المعنى و بين أن مقولته تلك هي من قبيل التجوُّز، و بين لهم جهة التجوِّز، فقال ما فحواه أن كتابكم المقدس قد جاء فيه تسمية داود لكم بالآلهة، و طبعا ليس المراد منه أنكم آلهة حقيقة، إنما أطلق عليكم هذا اللفظ لمعنى و هو صيرورة كلام الله و وحيه إليكم، فكذلك أنا الذي شاركتكم في صيرورة كلام الله و وحيه إليِّ، لماذا تنكرون عليِّ استخدام نفس هذا التعبير المجازي في حقي؟!

و حاصل كلامه أن هذا التعبير ضرب من المجاز استعماله

حسن شائع غير منكر و قد صرَّح عيسى عليه السلام في النص المذكور بجهة المجاز، بقوله: " إن قال آلهة لأولـئك الذين صارت لهم كلمة الله ".

و ليس المراد بالكلمة هنا طبعا لفظا ذا حروف، و إنما أراد بالكلمة سرا يهبه الله لمن يشاء من عباده، يحصل لهم به التوفيق إلى ما يصيِّرهم غير مباينين لله ، بل يصيِّرهم لا يحبون إلا ما يحبه، و لا يبغضون إلا ما يبغضه و لا يكرهون إلا ما يكرهه، و لا يريدون إلا ما يريده من الأقوال و الأعمال اللائقة بجلاله.

فإذا صار بهم التوفيق إلى هذه الحالة، حصل لهم المعنى المصحِّح للتجوُّز، هذا و يؤكد صحة التأويل الصارف إلى المجاز المذكور أنه عليه السلام احترز عن إرادة ظاهر هذا النص الدال على الاتحاد، بقوله:" فكيف تقولون لي أنا الذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أنت تكفر لأني قلت أنا ابن الله؟ "

فصرح عيسى عليه السلام بهذا أنه غير الآب، بل أن الآب هو الذي قدسه و أرسله، فهو رسولٌ لِلّه و ليس هو عين الله، متبرأً بهذا من الإلـهية التي تخيل اليهود أنه ادعاها لنفسه، مثبتا لنفسه خصوصية الرسل و الأنبياء فحسب.

هذا و لو كان مراد عيسى عليه السلام من قوله " أنا و الآب واحد " هو مفهومه الظاهر و أنه عين الله تعالى نفسه، لكان جهر بذلك و صرح به و لم يكن يتهرَّب من هذا المعنى، و لكان ما فعله من تهربه من إظهار ذلك و إنكاره له بما ضربه لهم من مثال على أن هذا مجاز لا حقيقة، مغالطة منه و غشا في الدعوة و تحريفا للعقيدة التي يؤدي الجهل بها إلى سخط الله، و هذا لا يليق بالأنبياء المرسلين الهادين إلى الحق.

فإن قيل: إنما ضرب لهم المثل لاتقاء شرهم و ليدفع عن نفسه أذاهم، قلنا: الخوف من اليهود لا يليق بمن يُدَّعى فيه أنه إلـه العالم و موجد الكائنات؟! ثم إن كان هو الإله الذي يجب أن يعبد حقا، و قد غشهم و صرفهم عن اعتقاد ذلك، يكون قد أضلهم عن أساس الدين و أمرهم بعبادة غيره، و هذا لا يليق بمن يُدَّعى فيه أنه أتى لخلاص العالم، بل لا يليق بمن انتصب للإرشاد و الهداية من عامة الناس، فضلا عمن صرح بأنه رسول هاد مرشد [7] .

ثانيا: هذا التعبير الذي أطلقه عيسى على نفسه، بأنه و الآب واحد، أطلقه بعينه تماما على الحواريين عندما قال في نفس إنجيل يوحنا هذا: " و لست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضا من أجل الذي يؤمنون بي بكلامهم [8] ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب فـيَّ و أنا فيك، ليؤمن العالم أنك أرسلتني، و أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد. أنا فيهم و أنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد" إنجيل يوحنا: 17/ 20 ـ 23.

إذن فالوحدة هنا ليس المقصود منها معناها الحرفي، أي الانطباق الذاتي الحقيقي، و إنما هي وحدة مجازية أي الاتحاد بالهدف و الغرض و الإرادة، و هذا ظاهر جدا من قوله " ليكونوا هم أيضا واحدا فينا "و قوله: " ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد، أنا فيهم و أنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد "، حيث دعى الله تعالى أن تكون وحدة المؤمنين الخلّص مع بعضهم البعض مثل وحدة المسيح عليه السلام مع الله سبحانه وتعالى ، و لا شك أن وحدة المؤمنين مع بعضهم البعض و صيروتهم واحدا ليست بأن ينصهروا مع بعض ليصبحوا إنسانا واحدا جسما و روحا!! بل المقصود أن يتحدوا بع بعضهم بتوحد إرادتهم و مشيئتهم و محبتهم و عملهم و غرضهم و هدفهم و إيمانهم...الخ أي هي وحدة معنوية، فكذلك الوحدة المعنوية بين الله تعالى و المسيح.

و يؤكد ذلك أنه عليه السلام دعا الله تعالى لوحدة الحواريين المؤمنين ليس مع بعضهم البعض فحسب بل مع المسيح و مع الله تعالى أيضا، بحيث تجعل الجميع واحدا، فلو كانت وحدة المسيح مع الله هنا تجعل منه إلـها، لكانت وحدة الحواريين مع المسيح و مع الله تجعل منهم آلهة أيضا!! و للزم من ذلك أن المسيح يدعو الله تعالى أن يجعل تلاميذه آلهة، و خطور ذلك ـ كما يقول الإمام أبي حامد الغزالي [9] ـ ببال من خلع ربقة العقل، قبيح، فضلا عمن يكون له أدنى خيار صحيح، بل هذا محمول على المجاز المذكور، و هو أنه عليه السلام سأل الله تعالى أن يفيض عليهم من آلائه و عنايته و توفيقه إلى ما يرشدهم إلى مراده اللائق بجلاله بحيث لا يريدون إلا ما يريده و لا يحبون إلا ما يحبه و لا يبغضون إلا ما يبغضه، و لا يكرهون إلا ما يكرهه، و لا يأتون من الأقوال و الأعمال إلا ما هو راض به، مؤثر لوقوعه، فإذا حصلت لهم هذه الحالة حسن التجوز.

و يدل على صحة ذلك أن إنسانا لو كان له صديق موافق غرضه و مراده بحيث يكون محبا لما يحبه و مبغضا لما يبغضه كارها لمايكرهه، حسن أن يقال: أنا و صديقي واحد. و يتأكد هذا المعنى المجازي لعبارة المسيح عليه السلام إذا لا حظنا الكلام الذي جاء قبلها و أن المسيح كان يقول أن الذي يأتي إلي و يتبعني أعطيه حياة أبدية و لا يخطفه أحد مني، لأن أبي الذي هو أعظم من الكل هو الذي أعطاني أتباعي هؤلاء و لا أحد يستطيع أن يخطف شيئا من أبي، أنا و أبي واحد، يعني من يتبعني يتبع في الحقيقة أبي لأنني أنا رسوله و ممثل له و أعمل مشيئته فكلانا شيء واحد. و هذا مثل قوله تعالى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : " من يطع الرسول فقد أطاع الله "، و أعتقد أن قصد الوحدة المجازية واضح جدا.

و قد جاء نحو هذا التعبير بالوحدة المجازية مع الله، عن بولس أيضا في إحدى رسائله و هي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (6 / 16 ـ17) حيث قال: " أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو جسد واحد لأنه يقول: يكون الاثنان جسدا واحدا؟ و أما من التصق بالرب فهو روح واحد "، و عبارة الترجمة العربية الكاثوليكية الجديدة: " و لكن من اتحد بالرب صار و إياه روحا واحدا ".

فكل هذا يثبت أن الوحدة هنا لا تفيد أن صاحبها هو الله تعالىعينه ـ تعالى الله عن ذلك ـ و إنما هي وحدة مجازية كما بينا.

و يشبه هذا عندنا في الإسلام ما جاء في الحديث القدسي الشريف الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: إن الله تعالى يقول "... و ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التي يبطش بها و رجله التي يمشي بها... الحديث "[10]

و لا شك أنه ليس المقصود من الحديث أن الله تعالى يحل بكل جارحة من هذه الجوارح، أو أنه يكون هذه الجوارح بعينها!! لأن هذا من المحال، بل المقصود أنه لما بذل العبد أقصى جهده في عبادة الله و طاعته، صار له من الله قدرة و معونة خاصتين، بهما يقدر على النطق باللسان، و البطش باليد.. وفق مراد الله عز و جل و طبق ما يشاؤه الله تعالى و يحبه. و الله أعلم.

و لذلك يقول من أقدر شخصا على أن يضرب بالسيف، و لولاه لما قدر على ذلك: أنا يدك التي ضربت بها.

الشبهة الرابعة

قول عيسى عليه السلام : " الآب فيَّ و أنا في الآب " [11]

الإجابة عن هذه الشبهة:

الاستدلال بأمثال هذه العبارات على إلـهية المسيح ضعيف و باطل أيضا من عدة وجوه:

أولا: هذه النصوص واجبة التأويل عند جمهور أهل التثليث لكونهم جميعا لا يؤمنون بظاهرها الحرفي الذي يفيد حلول الله الآب في عيسى الناصري البشر، لأن جمهور المسيحيين يرون أن الله الابن ـ و ليس الآب ـ هوالذي تجسد في المسيح عليه السلام، و لذلك فهذا النص يؤولونه بأن المقصود بعبارة: " الآب فيَّ و أنا في الآب " اتحاد الآب و الابن في الجوهر أي الاتحاد الباطني، و إن كانا شخصيتين منفصلتين.

ثم يصححون حلول الله الابن في عيسى البشر الذي كان الناس يرونه ـ رغم أن الله تعالى لا يرى و لا تدركه الأبصار باتفاق المسيحيين كلهم ـ بأن المسيح كان إنسانا كاملا و إلـها كاملا بنفس الوقت! و لذلك صح هذا الحلول باعتبار لاهوته، و لكننا سبق و أن بينا بالتفصيل أن هذا باطل و مخالف لصريح العقل و بديهيات المنطق و الوجدان [12] .

إذن لا مجال للأخذ بظاهر هذا النص و بمعناه الحرفي بل لا بد من المصير إلى معنى مجازي لهذا الاتحاد المذكور، و سيأتيك فيما يلي توضيح هذا المعنى المجازي استنادا إلى نصوص متشابهة من نفس الإنجيل و رسائل القديسين.

ثانيا: في نفس الإصحاح من إنجيل يوحنا الذي جاءت فيه تلك العبارة، جاء في الآية 20 منه قول المسيح عليه السلام أيضا: " في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي و أنتم فيَّ و أنا فيكم " يوحنا: 14 / 20.

كذلك مر معنا في الشبهة الماضية قول المسيح عليه السلام في دعائه الله تعالى لأجل التلاميذ:

" ليكون الجميع واحدا كما أنك أيها الآب فِـيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني... (إلى قوله) أنا فيهم و أنت فـيَّ ليكونوا مكمِّـلين إلى واحد.." إنجيل يوحنا: 17 / 21 ـ 23.

فالمسيح عليه السلام لم يقل أن الله تعالى فيه و هو في الله فقط، بل كذلك قال أن الحواريين أيضا هم في المسيح و المسيح فيهم، و دعا أيضا الله تعالى أن يكون الحواريون في الله و في المسيح أيضا فقال: ليكونوا هم أيضا فينا!

فإذا كانت الكينونة " في الله " تعني الإلـهية، فإذن المسيح يدعو الله تعالى أن يصير تلاميذه آلهة! و هذا لا يقول به مسيحي.

ثم لما كان ـ حسب تلك العبارات ـ الآب في المسيح و المسيح في التلاميذ، إذن، الآب في التلاميذ أيضا لأن الحالَّ في حالٍّ في محلٍ، حالٌّ أيضا في ذلك المحلِّ، فإذا كان ثبات الله تعالى في المسيح يدل على ألوهيته، فإن ثبات الله تعالى في التلاميذ يعني ألوهيتهم أيضا!! و هذا ما لا يعتقده مسيحي، إذن هذا الاتحاد في المحل و هذه الكينونة أو الثبات في الله، ليست مرادة بمعناها الحرفي، بل المراد منها معنى مجازي، فما هو؟ إن الحواريين أنفسهم و كتَّاب

الرسائل الملحقة بالأناجيل في العهد الجديد حلوا لنا هذا الإشكال بكل وضوح، و هذا ما نراه في النقطة التالية:

ثالثـا: لقد جاءت مثل هذه التعبيرات مرات عديدة في رسائل العهد الجديد المكملة للأناجيل، و منها يظهر مرادهم من حلول الله تعالى أو ثباته في شخص، و فيما يلي بعض هذه النصوص التي تظهر إرادة هذا المعنى المجازي من تعبير الحلول و الثبات في الله:

(1) جاء في رسالة يوحنا الأولى (4/ 12ـ 15):

" الله لم ينظره أحد قط، إن أحب بعضنا بعضا فالله يثبت فينا و محبته قد تكملت فينا. بهذا نعرف أننا نثبت فيه و هو فينا أننا قد أعطانا من روحه. و نحن قد نظرنا و نشهد أن الله قد أرسل الابن مخلِّصا للعالم. من اعترف أن يسوع هو ابن الله فا لله يثبت فيه و هو في الله ".

(2) و جاء في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (6 / 16):

" فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله: أني سأسكن فيهم و أسير بينهم و أكون لهم إلـها و هم يكونون لي شعبا "

قلت: فمن هذه النصوص يتضح جليَّاً أن مرادهم من تعبير ثبات الله تعالى في المؤمنين المطيعين، هو أنه تعالى معهم و مؤيد لهم و محب و ناصر لهم و أنه تعالى جعل إرادتهم مثل إرادته و مشيئتهم كمشيئته، إذ لو كان ثبات الشخص في الله أو ثبات الله فيه مشعرا بالاتحاد و مثبتا للألوهية للزم أن يكون الحواريون، بل جميع أهل كورنثوس و جميع الصالحين آلهة!!، فكذلك تماما ثبات الله تعالى في المسيح

و ثبات المسيح فيه معناه أن ما يقوله المسيح و يفعله هو قول الله تعالى و فعله و مطابق لمشيئته و منطلق من تأييده و محبته و رضوانه، فإرادتهما متحدة و هدفهما واحد.

الشبهة الخامسة

قول المسيح عليه السلام : " الذي رآني فقد رأى الآب " يوحنا:14 / 9.

مناقشة هذه الشبهة :

لفهم هذه العبارة لا بد أن نلاحظ تمام الكلام الذي جاءت في وسطه. لقد جاءت هذه العبارة ضمن حوار، رواه يوحنا في إنجيله (14/1 ـ 10)، جرى بين المسيح عليه السلام و تلاميذه الإثني عشر، في العشاء الأخير، و فيه يقول المسيح:ـ

" لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة. و إلا فإني كنت قد قلت لكم. أنا أمضي لأعد لكم مكانا. و إن مضيت و أعددت لكم مكانا آتي أيضا و آخذكم إلى حيث أنا تكونون أنتم أيضا. و تعلمون حيث أنا أذهب و تعلمون الطريق. قال له توما: يا سيد لسنا نعلم أين تذهب كيف نقدر أن نعرف الطريق ؟ قال له يسوع: أنا هو الطريق و الحق و الحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضا. و من الآن تعرفونه و قد رأيتموه. قال له فيليبس: يا سيد أرنا الآب و كفانا. قال له يسوع: أنا معكم زمانا هذه مدته و لم تعرفني يا فيليبس. الذي رآني فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أرنا الآب ؟ ألست تؤمن أني أنا في الآب و الآب فـيَّ؟ الكلام الذي

أكلمكم به ليس أتكلم به من نفسي لكن الآب الحالَّ فيَّ هو يعمل الأعمال "

و الآن نقول: إن الاستدلال بقول المسيح " من رآني فقد رأى الآب " على ألوهيته، استدلال في غاية الضعف، لأن المجاز في هذا التعبير، خاصة لمن يلاحظ السياق الذي جاء به، أوضح من أن يُسْتدل عليه.

فأولاً: لا يمكن أن يكون المعنى الحرفي مرادا، حتى عند جمهور النصارى، لأنه لا أحد منهم يعتقد أن ذلك الـمُشَاهَد، أي جسم عيسى المادي، هو الله تعالى أي الآب الذي في السموات نفسه! لأن الآب تعالى ليس بجسم و لا يُحَدُّ و لا يُرى، باتفاق جميع النصارى، لذلك يؤولون الرؤية هنا بالمعرفة و يقولون أن المعنى أن من عرفني و عرف حقيقتي اللاهوتية فقد عرف الآب، لكن سبق و بينا أنه من المحال أن يكون الشخص الواحد بعينه إلـها و بشرا بنفس الوقت، فهذا التأويل باطل.

إذن هم متفقون معنا على أن مثل هذا التعبير لا يراد به معناه الظاهري الحرفي أي تطابق المفعول به الأول للرؤية مع المفعول به الثاني لها، تطابقا حقيقيا تاما بكونهما شيئا واحدا، بل يراد به معنى مجازي، فلا بد من المصير إلى مجاز منطقي يقبله العقل و تساعد عليه النصوص الإنجيلية المماثلة الأخرى.

مثلاً في إنجيل لوقا (10/16) يقول المسيح عليه السلام لتلاميذه السبعين الذين أرسلهم اثنين اثنين إلى البلاد للتبشير :

" الذي يسمع منكم يسمعني و الذي يرذلكم يرذلني و الذي يرذلني يرذل الذي أرسلني "

و لا يوجد حتى أحمق فضلا عن عاقل يستدل بقوله عليه السلام : " من يسمعكم يسمعني "، على أن المسيح حالٌّ بالتلاميذ أو أنهم المسيح ذاته !

و كذلك جاء في إنجيل متى (10/40) أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه:

" من يقبلكم يقبلني و من يقبلني يقبل الذي أرسلني ".

و مثله ما جاء في إنجيل لوقا (9/48) من قول المسيح عليه السلام في حق الولد الصغير:

"من قبل هذا الولد الصغير باسمي يقبلني و من قبلني يقبل الذي أرسلني"

و وجه هذا المجاز واضح و هو أن شخصا ما إذا أرسل رسولا أو مبعوثا أو ممثلا عن نفسه فكل ما يُـعَامَلُ به هذا الرسول يعتبر في الحقيقة معاملة للشخص المرسِـل أيضا.

فالآن نعود لعبارتنا وللنص الذي جاءت فيه، فنرى أن الكلام كان عن المكان الذي سيذهب إليه المسيح و أنه ذاهب إلى ربه، ثم سؤال توما عن الطريق إلى الله، فأجابه المسيح أنه هو الطريق، أي أن حياته و أفعاله و أقواله و تعاليمه هي طريق السير و الوصول إلى الله، ثم يطلب فيليبس من المسيح أن يريه الله، فيقول له متعجبا: كل هذه المدة أنا معكم و ما زلت تريد رؤية الله، و معلوم أن الله تعالى ليس جسما حتى يرى، فمن رأى المسيح و معجزاته و أخلاقه و تعاليمه التي تجلى فيها الله تبارك و تعالى أعظم تجل، فكأنه رأى الله، ثم شرح المسيح ذلك ـ و هنا بيت القصيد ـ فقال: " إن الكلام الذي أقوله لكم لا أقوله من عندي بل

الآب الحال في يعمل أعماله صدقوني أني في الآب و الآب فيَّ "، و هنا نعيد للأذهان إجابتنا عن الشبهة السابقة و أن حلول الله في الشخص و العكس المقصود منه، بلغة الإنجيل، تـو لِّـي الله لهذا الشخص و نشوء التوافق الكامل بينه و بين الله في الإرادة و الهدف و القصد و المشيئة و المحبة أو بتعبير الصوفية المحو عن النفس و الفناء في الله.

و حاصل الكلام أن المسيح لما كان رسولَ الله و كلمتَه و روحا منه و كان لا يتكلم إلا بأمره و وحيه و كانت أعماله و معجزاته و تعاليمه كلها من عند الله و بأمر الله و برضا الله و فيها تجلى الله و عرف مراده و تجلت صفاته، كان ممثلا عن الله، و بالتالي حسن التجوز بالتعبير من أن من رآه فقد رأى الله.

و نحو هذا المجاز كثير في العهد القديم كذلك، فعلى سبيل المثال، يقول الله تعالى على لسان النبي إرميا:

" أكلني ابتلعني بختنصر ملك بابل، جعلني كإناء فارغ، بلعني كتنين، ملأ بطنه من رخصتي و طردني " سفر إرميا: 51 / 34.

و جاء نحو هذا المجاز أيضا، في القرآن الكريم، كثيراً كقوله تعالى: " و ما رميت إذا رميت و لكن الله رمى " الأنفال/ 17. أو قوله سبحانه: " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم " الفتح / 10، أو قوله تعالى : " من يطع الرسول فقد أطاع الله " النساء / 80.

الشبهة السادسة

قول عيسى عليه السلام : " أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم "

قالوا: ففي هذا النص أكد اختلافه عنا نحن البشر و أنه ليس من هذا العالم المادي بل هو من فوق و أنه نزل إلى الأرض من السماء، فكل هذا يدل على أنه إلـهٌ نزل و تجسَّـد.

الرد على هذه الشبهة :

بالنسبة للآية الأولى فإن عيسى عليه السلام قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضا، فقد جاء في إنجيل يوحنا هذا (15/19): " لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته و لكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم "

و في الإصحاح 17 من هذا الإنجيل أيضا يقول عيسى في دعائه لأجل التلاميذ:

" أنا قد أعطيتهم كلامك و العالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم كما أني لست من العالم. لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير. ليسوا من العالم كما أني لست من العالم " يوحنا: 17 / 14 ـ 15.

فقال في حق تلاميذه أنهم ليسوا من العالم و سوَّى بينه وبينهم في عدم الكون من هذا العالم، فلو كان هذا مستلزما للألوهية كما زعموا، للزم أن يكونوا كلهم آلهة ـ و العياذ بالله ـ [13] ، بل التأويل الصحيح لتلك الآية الإنجيلية هو: أنا لست من أبناء هذه الدنيا، أي الراكنين إليها المطمئنين بها الراغبين بها، بل من طلاب الله و الآخرة، الذين ليس في قلبهم تعلق و حب إلا لِلَّه، فأنا من أهل ذلك العالم العلوي

القدسي عالم الأطهار و الملائكة، لأنه هو قبلتي و وجهتي و منه جئت برسالة الله و إليه أعود بعد أدائها.

فتعبيره نوع من المجاز، و هو مجاز شائع معروف، يقال فلان ليس من هذا العالم، يعني هو لا يعيش في الدنيا و لا يهتم بها و لا بمفاتنها بل همُّـهُ كله الله و الدار الآخرة فقط.

الشبهة السابعة

قوله عليه السلام : " و ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء " [14]

الرد على هذه الشبهة:

أولا: في هذه الآية، جملة محرفة مضافة، و هي جملة " الذي هو في السماء " الأخيرة. و قد أقر بذلك شراح الأناجيل، كما جاء ذلك في كتاب تفسير الكتاب المقدس حيث قال: " الذي هو في السماء: هذه العبارة لم ترد في أقدم المخطوطات " [15] .

و لذلك فإن الترجمة العربية الجديدة المنقحة للكتاب المقدس التي قامت بها الرهبانية اليسوعية، حذفت هذه الجملة من ترجمتها و أوردت النص كما يلي: " فما من أحد يصعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء و هو ابن الإنسان ".

ثانيا: لوأخذنا النزول من السماء على معناه الحرفي فليس فيه أي إثبات لإلـهية المسيح، إذ أن نزول الشخص أو الكائن من السماء إلى الأرض لا يفيد إلـهيته لا من قريب ولا من

بعيد، فكثير من الكائنات الملكوتية نزلت من السماء، كجبريل مثلا الذي كان ينزل من السماء إلى الأرض حاملا رسالات الله أو منفذا أمرا من أوامر الله عز و جل، كما أنه في كثير من الأحيان، هبطت بعض الملائكة إلى الأرض آخذة لباسا بشريا، كالملائكة الثلاثة، الذين جاؤوا لزيارة إبراهيم عليه السلام و بشارته ثم ذهبوا إلى لوط عليه السلام ليطمئنوه حول نزول العذاب على قومه الفاسقين.

فأقصى ما يفيده مثل هذا النص، لو أخذ على معناه الحرفي، هو أن المسيح كان مخلوقا بالروح قبل أن يلد كإنسان على الأرض، ثم لما جاء وقته نزل بأمر الله إلى الأرض و ولد كسائر البشر بالجسد و الروح. فأين في هذا أي دليل على ألوهيته؟!

ثالثا: والحقيقة أن هذا التعبير بنزول المسيح من السماء لا يقصد به معناه الحرفي بل هو ذو معنى مجازي، و لفهمه على وجهه الصحيح لا بدَّ أن نقرأ ذلك النص و تلك الآية ضمن سياقها سباقها و لحاقها، فقصة هذا الكلام تبدأ من أول الإصحاح الثالث في إنجيل لوقا هكذا:

" كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيسا لليهود. هذا جاء إلى يسوع ليلا و قال له يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلما لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه. أجاب يسوع و قال له: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقوديموس: كيف يمكن الإنسان أن يولد و هو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية و يولد؟ أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من الماء و الروح لا يقدر أن يرى ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، و المولود من الروح هو روح. لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق. الريح تهب حيث

تشاء و تسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي و لا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح. أجاب نيقوديموس و قال له: كيف يمكن أن يكون هذا؟ أجاب يسوع و قال له: أنت معلم إسرائيل و لست تعلم هذا؟ الحق الحق أقول لك، إننا إنما نتكلم بما نعلم و نشهد بما رأينا و لستم تقبلون شهادتنا. إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات. و ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء " يوحنا: 3 / 1 ـ 13.

قلت: بتأمل هذا النص يتبين لنا أن المسيح عليه السلام يمثل للولادة الروحية الجديدة بالولادة من فوق أو الولادة من الروح، و أن من لم يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله، فالولادة من فوق أو من الروح، تعبير مجازي عن الانقلاب الروحي الشامل للإنسان الذي يشرح الله تعالى فيه صدره و يفتح قلبه و بصيرته لنوره، فتتغير كل رغباته و هدفه في الحياة حيث يخرج عن عبادة ذاته و حرصه على الدنيا لتصبح إرادته مستسلمة و موافقة لإرادة الله و يصبح هدفه هو الله تعالى و رضوانه و محبته و صحبته و جواره في دار السلام لا غير، فكأنه بهذا ولد من جديد، و من هذا المنطلق يقول المسيح عن نفسه أنه نزل من السماء: أي أنه رسول الله و مبعوث السماء، اجتباه الله و قدسه و جعله سفيره إلى الخلق، فهذا معنى نزوله من السماء، بدليل مقارنته و مشابهته عليه السلام بين هذا النزول من السماء و بين الولادة من فوق التي يجب أن يحصل عليها كل إنسان لكي يرى ملكوت الله.

و لو رجعنا لتفسير الكتاب المقدس لوجدناه يفسر العبارة بتفسير غير بعيد عما ذكرناه فيقول: " (12) لم يصعد أحد إلى السماء، و مع ذلك فقد أراد الله أن يكون هناك نزول

من السماء إلى الأرض (13) قد أتى يسوع من السماء بمعرفة كاملة لله، ليعلن اللهَ للناس " [16] .

الشبهة الثامنة

قول المسيح عليه السلام : " قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن "

مزيد من البسط للشبهة :

و مثل ذلك أيضا قول النبي يحيى (يوحنا المعمدان) عن المسيح: " هذا (أي المسيح) الذي قلت فيه: إن الآتي بعدي قد تقدمني لأنه كان من قبلي " إنجيل يوحنا: 1/15.

كما توجد بعض النصوص الأخرى التي تفيد حسب ظاهرها ـ لكن بأقل صراحة من المذكور أعلاه ـ أن عيسى عليه السلام كان قبل خلق هذا العالم و ذلك كالعبارات التي جاءت في دعاء عيسى عليه السلام لأجل التلاميذ، في الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا:

" و الآن مجدني أيها الآب عن ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم " يوحنا: 17 / 5.

" أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم "يوحنا:17/24.

الرد على هذه الشبهة:

أولا: كون الشخص وجد قبل إبراهيم أو قبل يحيى (عليهما السلام) أو حتى قبل آدم أو قبل خلق الكون كله، لا يفيد، بحد ذاته، ألوهيته بحال من الأحوال، بل أقصى ما يفيده هو أن الله تعالى خلقه قبل خلق العالم أو قبل خلق جنس البشر، مما يفيد أنه ذو حظوة خاصة و مكانة سامية و قرب خصوصي من الله سبحانه وتعالى ، أما أنه هو الله، فهذا يحتاج لنص صريح آخر، و ليس شيء من العبارات المذكورة أعلاه بنص في ذلك على الإطلاق، و هذا لا يحتاج إلى تأمل كثير.

ثانيا: هذا إن أخذنا ذلك التقدم الزماني على ظاهره الحرفي، مع أنه من الممكن جدا أن يكون ذلك من قبيل المجاز، بل قرائن الكلام تجعل المصير إلى المعنى المجازي متعينا، و هذا يحتاج منا لذكر سياق تلك العبارة من أولها:

جاء في إنجيل يوحنا (8 / 56 ـ 59):

"... و كم تشوق أبوكم إبراهيم أن يرى يومي، فرآه و ابتهج. قال له اليهود: كيف رأيت إبراهيم، و ما بلغت الخمسين بعد؟ فأجابهم: ((الحق الحق أقول لكم: كنت قبل أن يكون إبراهيم)) فأخذوا حجارة ليرجموه، فاختفى و خرج من الهيكل " [17] .

فقبلية عيسى المسيح على إبراهيم هنا، لا يمكن أن تكون قبلية حقيقية في نظر النصارى، لا باعتبار ناسوت المسيح المنفك عن اللاهوت طبقا لاعتقادهم، لأن ولادة عيسى الإنسان كانت بعد إبراهيم عليه السلام اتفاقا، و لا باعتبار حصول الحقيقة الثالثة المدعاة له أي تعلّق اللاهوت بالناسوت [18] ، لأن ذلك تم مع ولادة المسيح من العذراء و روح القدس الذي تم أيضا بعد إبراهيم اتفاقا.

و لا يمكن أن يكون قصده سبق المسيح على إبراهيم باعتبار لاهوته الأزلي المدَّعى، بقرينة أن بداية الكلام كانت عن رؤية إبراهيم لهذا اليوم، أي يوم بعثة المسيح و رسالته، و ابتهاج إبراهيم به، فالكلام إذن عن رؤية المسيح المبعوث في الأرض، و هذا تم بعد إبراهيم اتفاقا، فلم يبق إلا أن يكون المراد بالقبلية علم الله السابق بتقدير إرسال عيسى عليه السلام في هذا الوقت، و ما يترتب عليه من الإرشاد و الرحمة بالعباد. فإن قيل: أيُّ خصوصية للمسيح في ذلك، إذ أن هذا المحمل ـ أي علم الله السابق ـ مشترك بينه و بين سائر الأنبياء، بل جميع البشر؟

فالجواب: أنه عليه السلام لم يذكر ذلك في معرض الخصوصية، و إنما ذكره قاطعا به استبعاد اليهود لسرور إبراهيم و فرحه بيومه، و تصحيحا لصدقه فيما أخبر و لصحة رسالته، ببيان أن دعوى رسالته ثابتة في نفس الأمر و مقررة سابقا و أزلا في علم الله القديم [19] .

و قد ورد مثل ذلك في ألفاظ خاتم المرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال: "كنت نبيا و آدم بين الروح و الجـسـد " [20] .

الشبهة التاسعة

قول المسيح عليه السلام لليهود: " كيف يُـقال لمسيح أنه ابن داود، و داود نفسه يقول في كتاب المزامير ((قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك)) فداود نفسه يدعو المسيح ربا، فكيف يكون المسيح ابنه؟ " [21]

الرد على هذه الشبهة :

الحقيقة أن من يتأمل تلك الجملة التي استشهد بها السيد المسيح عليه السلام من سفر المزامير معتبراً إياها بشارة في حقه، يراها دليلا واضحا على نفي إلـهية المسيح لا على إثبات إلـهيته!

فعبارة المزامير تقول: [قال الرب (أي الله سبحانه وتعالى) لربيٍ (أي المسيح) اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطأً لقدميك]، و بناء على هذه الجملة لا يمكن أن يكون المقصود من كلمة ربي الثانية هو الله أيضا، و ذلك لأن المعنى سيصبح عندئذ: قال الله لِـلَّه اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك!! و كيف يجلس الله عن يمين نفسه!؟ ثم إذا كان ربي الثانية إلها فإنه لا يحتاج لأحد حتى يجعل أعداءه موطئا لقدميه، بل هو نفسه يسخر أعداءه بنفسه و لا يحتاج إلى من يسخرهم له، هذا كله عدا عن أن مخاطبة الله لإلـه آخر تعني وجود إلهين اثنين و هذا يناقض عقيدة التوحيد التي هي أساس الرسالات السماوية! فهذا كله يؤكد أن ربي الثانية ليس الله و لا بإلـه ثان بل لا بد أن يكون معناها شيئا غير ذلك، فما هو؟

الحقيقة أن ما يريده المسيح عليه السلام من عبارته تلك هو تذكير اليهود بمقامه العظيم ـ الذي تشير إليه عبارة نبيهم داود عليه السلام ـ قائلا لهم: كيف تعتبرون المسيح مجرد ابنٍ لداود مع أن داود نفسه اعتبر المسيح الآتي المبشر به و الذي سيجعله الله دائنا لنبي إسرائيل يوم الدينونة: ربّاً له: أي سيدا له و معلما ؟!

و بمراجعة بسيطة للأناجيل ندرك أن لفظة الرب تستخدم بحق المسيح بمعنى السيد و المعلم، و قد سبقت الإشارة

لذلك و لا مانع أن نعيدها هنا، فقد جاء في إنجيل يوحنا (1/38): " فقالا: ربي! الذي تفسيره يا معلم، أين تمكث؟ " و جاء فيه أيضا: (20/16): " قال لها يسوع: يا مريم! فالتفتت تلك و قالت له: ربوني! الذي تفسيره يا معلم ".

هذا ما ذكرته بنفسي دون الاطلاع على النص الأصلي لتلك البشارة كما جاء في الترجمة العربية الحديثة للكتاب المقدس، التي قامت بها الرهبانية اليسوعية ببيروت (1989)، فلما راجعت هذا النص وجدت ترجمتهم له عين ما توصلت إليه، فقد جاء في المزمور 110 / آية 1 ما يلي: " قال الرب لســـيَّدي: اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك ". و الحمد لله الذي أظهر الحق.

الشبهة العاشرة

قول المسيح عليه السلام : " و لكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا " [22]

و وجه استدلالهم بهذا النص أن غفران الخطايا أمر منحصر بالله سبحانه وتعالى ، فإذا كان للمسيح ذلك السلطان، فهذا يعني أنه الله تعالى.

الرد على هذه الشبهة :

أولا: لمناقشة هذه الشبهة علينا أن نرجع إلى النص الكامل للواقعة التي جاء هذا الكلام للمسيح فيها.

يبتدأ الإصحاح التاسع من إنجيل متى بذكر هذه الواقعة فيقول :

" فدخل السفينة و اجتاز و جاء إلى مدينته. و إذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحا على فراش. فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج ثق يا بني. مغفورة لك خطاياك. و إذا قوم من الكتبة قد قالوا في أنفسهم هذا يجدف. فعلم يسوع أفكارهم فقال: لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم. أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال قم و امش؟ و لكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا. حينئذ قال للمفلوج. قم احمل فراشك و اذهب إلى بيتك. فقام و مضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبوا و مجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا " متى: 9 /1 ـ 8.

هناك أمران في هذا النص تنبغي ملاحظتهما لأنهما يلقيان ضوءا على حقيقة سلطان السيد المسيح عليه السلام لغفران الخطايا :

الأول: أن المسيح لم يقل للمفلوج: ثق يا بني لقد غفرتُ لك خطاياك! بل أنبأه قائلا: مغفورة لك خطاياك. و الفرق واضح بين الجملتين، فالجملة الثانية لا تفيد أكثر من إعلام المفلوج بأن الله تعالى قد غفر ذنوبه، و ليس في هذا الإعلام أي دليل على ألوهية المسيح، لأن الأنبياء و الرسل المؤيدين بالوحي و المتصلين بجبريل الأمين، يطلعون، بإطلاع الله تعالى لهم، على كثير من المغيبات و الشؤون الأخروية و منها العاقبة الأخروية لبعض الناس، كما أخبر نبينا محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) عن بعض صحابته فبشرهم أنهم من أهل الجنة و عن آخرين فبشرهم أنهم من أهل النار.

ثانيا: قد يشكل على ما قلناه قول المسيح فيما بعد: و لكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانا علىالأرض أن يغفر الخطايا، فنسب غفران الخطايا لنفسه.

قلنا: آخر النص يجعلنا نحمل هذه النسبة على النسبة المجازية، أي على معنى أن ابن الإنسان (المسيح) خوله الله أن يعلن غفران خطايا، و ذلك لأن الجملة الأخيرة في النص السابق تقول: " فلما رأى الجموع ذلك تعجبوا و مجدوا الله الذي أعطى الناس سلطانا مثل هذا "، فالغافر بالأصل و الأساس هو الله تعالى، ثم هو الذي منح هذا الحق للمسيح و أقدره عليه، لأن المسيح فنى في الله تعالى و كان على أعلى مقام من الصلة بالله و الكشف الروحي و لا يتحرك إلا ضمن حكمه و إرادته فلا يبشر بالغفران إلا من استحق ذلك.

و مما يؤكد أن غفران المسيح للذنوب هو تخويل إجمالي من الله تعالى له بذلك، و ليس بقدرة ذاتيه له عليه السلام ، هو أن المسيح، في بعض الحالات، كان يطلب المغفرة للبعض من الله تعالى فقد جاء في إنجيل لوقا (23 / 34):

" فقال يسوع: يا أبتاه! اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون ".

فانظر كيف طلب من الله غفران ذنبهم و لو كان إلـها يغفر الذنوب بذاته و مستقلا، كما ادعوا، لغفر ذنوبهم بنفسه.

فهذا السلطان بغفران الخطايا الذي أعطاه الله تعالى للمسيح، شبيه بذلك السلطان الذي منحه المسيح أيضا لحوارييه الخلص بعد ظهوره لهم من جديد، بعد صلبه (الذي شُـبِّـهَ لهم به)، حين قال:

" فقال لهم يسوع أيضا: سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. و لمّا قال هذا نفخ و قال لهم: اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تغفر له. من أمسكتم خطاياه أمسكت " يوحنا: 20 / 21 ـ 23.

و شبيه بذلك السلطان الذي منحه لبطرس رئيس الحواريين حين قال له:

" طوبى لك يا سمعان بن يونى، إن لحما و دما لم يعلنا لك. لكن أبي الذي في السموات. و أنا أقول أيضا: أنت بطرس و على هذه الصخرة أبني كنيستي و أبواب الجحيم لن تقوى عليها. و أعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات، و كل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات " متى: 11 / 17 ـ 18.

فكما أن هذا السلطان بغفران الخطايا الذي ناله بطرس خاصة و الحواريون عامة، بإذن الله، عبر المسيح، لا يفيد ألوهيتهم؛ فكذلك امتلاك المسيح لذلك السلطان، بإذن الله، لا يفيد ألوهيته.

هذا و من الجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية قد توسعت لحد بعيد في إعطاء هذا الحق بغفران الخطايا من بطرس لخلفائه الباباوات و حتى لمن يرسمونهم من الأساقفة، و منه نشأ تقليد الاعتراف للقسيس و غفران الأخير لذنوب المعترف! بل وصل الأمر في عصر من العصور لبيع صكوك الغفران و بيع قطع الأرض في الجنة جاهزةً لمن يتبرع للكنيسة، و من المفيد أن ننقل هنا نصا لأحد صكوك الفغران، كما جاء في كتاب " سوسنة سليمان في أصول العقائد و الأديان " لمؤلفه (النصراني) نوفل أفندي نوفل، حيث ذكر ترجمة لأحد صكوك الغفران التي كانت تباع في مدينة ويتمبرغ الألمانية (التي كان مارتن لوثر يدرس فيها) عام 1513 م. و نص الصك كما يلي:

" ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان و يُحِلُّكَ باستحقاقات آلامه الكلية القداسة و أنا بالسلطان الرسولي المعطى لي

أحـلك من جميع القصاصات و الأحكام و الطائلات الكنسية التي استوجبتها و أيضا من جميع الافراط و الخطايا و الذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة و فظيعة و من كل علة و لئن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا و الكرسي الرسولي، و أمحو جميع العجز و كل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر، و أردك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة و أقرنك في شركة القديسين، و أردك ثانية إلى الطهارة و البر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذابات و العقاب و يفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح، إن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة... باسم الآب و الابن و الروح القدس الواحد، آميــن. " [23]

و بناء على ما ذكر نقول: أنه لو كان امتلاك حق غفران الخطايا يدل على ألوهية مالك هذا الحق للزم منه أن يعتبر الحواريون و القديس بطرس الرسول و بولس و كل آباء الكنيسة و اساقفتها المخولون ذلك الحق آلهة أيضا!! و هذا ما لا يقول به أحد.

و إذا بطل اللازم، بطل الملزوم، فبطل الاستدلال بسلطان المسيح على غفران الخطايا، على ألوهيته.

الشبهة الحادية عشرة

قول توما للمسيح عليه السلام : " ربي و إلهي! " و عدم اعتراض المسيح على ذلك.

الرد على هذه الشبهة:

لمناقشة هذه الشبهة علينا أن نرجع أولا إلى النص الكامل للواقعة التي خاطب فيها توما معلمه المسيح عليه السلام بتلك العبارة، و فيما يلي نصها:

" و بعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضا داخلاً و توما معهم. فجاء يسوع و الأبواب مغلقة و وقف في الوسط و قال سلام لكم. ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا و أبصر يدي و هات يدك و ضعها في جنبي و لا تكن غير مؤمن بل مؤمنا. أجاب توما و قال له: ربي و إلهي! فقال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت؟ طوبى للذين آمنوا و لم يروا! "

من هذا السياق يتضح أن ما أطلقه توما من عبارة كان في موضع الاندهاش و التعجب الشديد فقال: ربي و إلهي! و لا يقصد أن المسيح نفسه ربه و إلهه، بل هو كما يقول أحدنا إذا رأى فجأة أمرا مدهشا و محيرا للغاية: ألـلــه! أو يا إلــهي!!، فهي صيحةٌ لله تعالى و ليست تأليها للمسيح.

و حتى لو سلمنا أن هذه الصيحة لم تكن لله الآب تعالى، بل قصد توما بها المسيحَ نفسه عليه السلام، فهذا أيضا لن يكون دليلا على تأليه المسيح لأن لفظة الإلـه في الكتاب المقدس، مثلهامثل لفظة الرب، تأتي أحيانا على معان مجازية، لا تفيد الربوبية و لا الألوهية الخاصة بالله سبحانه وتعالى ، أما بالنسبة للفظة الرب فقد بينا أكثر من مرة أنه يقصد بها " السيد المعلم " [24] ، و لا حاجة للإعادة هنا.

و أما بالنسبة للفظة الإله، فنرجع القارئ الكريم إلى ما تقدم ذكره حول إطلاق المسيح و التوراة كذلك لفظة الآلــهة على المؤمنين الربانيين الذين صار إليهم وحي الله فالتزموا بوحي الله و ما أنزله عليهم من منهج و تعاليم]

25] , و نضيف على ذلك هذه العبارة من التوراة:

" قد جعلتك إلـها لفرعون، و أخاك هارون رسولك " الخروج: 17/1.

فهذا النص يبين أنه في لغة الكتاب المقدس Bible تأت أحيانا لفظة الإله للدلالة على السيد الكبيرـ و النبي العظيم.

و لذلك يحتمل أن يكون المراد بقول توما للمسيح: " ربي و إلـهي "، هذا المعنى بالذات، و ما دام هذه الاحتمال وارد، لم تعد تلك اللفظة كافية للدلالة على إلـهية المسيح، لأنه كما يقولون: إذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال.

هذا فضلا عن أن القول بإلهية ذلك الإنسان البشر، الذي أثبت الإنجيل نفسه صفاته البشرية المحضة و عروض جميع عوارض الضعف البشري الطبيعي عليه، يستتبع محالات عقلية سبقت الإشارة إليها مما يغني عن إعادتها.

و بهذا نكون قد أتينا على جميع الشبهات القولية التي يستند إليها المؤلهون للمسيح عليه السلام لننتقل الآن لشبهاتهم من الولادة المعجزة و الأعمال الخارقة للمسيح عليه السلام .

ب ـ الشبهات من أحوال و معجزات المسيح عليه السلام :

و الرد على هذه الشبهات في غاية السهولة و الوضوح، ذلك أن كل ما أثبته الإنجيل، و العهد الجديد بشكل عام، للمسيح عليه السلام ، من أحوال خارقة كولادته من غير أبوين أو ارتفاعه بعد موته (حسب تصورهم)، و من معجزات و

أعمال خارقة كإحياء الموتى و شفاء الأعمى و الأبرص من الولادة و غير ذلك، أثبت الكتاب المقدس مثلها تماما أو حتى أكبر منها، لغيره من الأنبياء أو للحواريين، فإن كانت تلك الأحوال و المعجزات دليلا على ألوهية صاحبها، فإن الألوهية عندئذ لن تقتصر على السيد المسيح فحسب، بل ستعم أولـئك الأنبياء الذين سبقوه و الذين كانت لهم مثل معجزاته و أحواله، بل ستعم الألوهية حوارييه و تلاميذه و تلاميذ تلاميذه الذين ظهرت على يديهم ـ حسب كلام العهد الجديد ـ مثل معجزاته أيضا!. و إليك تفصيل هذا المجمل :

1ـ رد الاستدلال بولادة المسيح من غير أب، بل بنفخة من روح الله، على ألوهيته :

ليس في ولادة المسيح عليه السلام من غير أب و أنه ولد من نفخ روح القدس، أي دليل على ألوهيته، فآدم عليه السلام ولد أيضا ـ باتفاق النصارى و المسلمين ـ من غير أب و لا أم، بل من نفخ الله تعالى فيه من روحه، أي من روح قدسه، و هذا ما أوضحه القرآن الكريم بأفضل بيان، في معرض رده على الذين يؤلهون المسيح استنادا لولادته الإعجازية، فقال:

{ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون } آل عمران / 59 ـ 60.

بل يذكر العهد الجديد اسم كاهن مقدس وجد منذ قديم الأيام بلا أب و لا أم أيضا و هو الكاهن "ملكي صادق" و لم يقل أحد من المسيحيين بألوهيته !

لننظر ماذا جاء عنه في الإصحاح السابع من الرسالة إلى العبرانيين المعتبرة أحد الراسائل القانونية الإلهامية في

كتاب العهد الجديد:

" و كان ملكيصادق هذا ملك ساليم و كاهن الله تعالى، خرج لملاقاة إبراهيم عند رجوعه بعد ما هزم الملوك و باركه، و أعطاه إبراهيم العشر من كل شيء، و تفسير اسمه أولاً ملك العدل ثم ملك ساليم أي ملك السلام. و هو لا أب له و لا أم و لا نسب و لا لأيامه بداءة و لا لحياته نهاية. و لكنه على مثال ابن الله، يبقى كاهنا إلى الأبد " الرسالة إلى العبرانيين: 7 /1 ـ 3.

فإذا كان ملكي صادق، رغم كونه بلا بداية و لا أب و لا أم و لا نسب، عبدا مخلوقا، بإقرار النصارى جميعا، حيث لم يقل أحد منهم بألوهيته، فكيف إذن يصح استدلالهم باتصاف المسيح ببعض هذه الصفات على ألوهيته؟!

2 ـ رد الاستدلال بأعمال المسيح المعجزة الخارقة على ألوهيته :

ما من معجزة نقلها الإنجيل عن المسيح عليه السلام، إلا نقل كتاب العهد القديم وقوع مثلها أو أقوى منها عن بعض من سبق المسيح من الأنبياء عليهم السلام، و نقل كتاب العهد الجديد وقوع مثلها أيضا على يد حواريي المسيح، أو نقل بيان المسيح إمكانية وقوعها على يد كل مؤمن صادق من تلامذته و أتباعه إذا تمحض كمال الإيمان و أخلص العمل. و فيما يلي شواهد على ما نقول:

أ ـ فبالنسبة لإحياء الموتى، كلنا يعرف معجزة موسى عليه السلام بقلب العصا حية حقيقية أمام فرعون و سحرته [26] ، و هذه المعجزة أشد إعجازا من إحياء عيسى عليه السلام للميت، لأن معجزة عيسى عليه السلام ليس فيها إلا

بعث الحياة في هيكل إنساني كامل موجود، في حين اشتملت معجزة موسى عليه السلام على أمرين :

أولاً: تغيير شكل و صورة العصا و إيجاد صورة و شكل جديدين لها بتحويلها لحية تسعى ذات عينين و لسان و جلد، و ثانياً: بعث الحياة فيها.

و كذلك يروي لنا العهد القديم قصة إحياء النبي إيليَّـا عليه السلام ابنَ المرأة الأرملة، التي كانت تعوله عندما كان ملتجأً في قرية صرفة قرب صيدون [27] و التي مات ابنها لشدة المرض، فدعا إيليا ربه فاستجاب له و بعث الحياة من جديد في الولد الميت.

و كذلك يروي لنا سفر أعمال الرسل من العهد الجديد، قصة إحياء القديس بطرس الرسول، تلميذ المسيح المقرب و حواريه، للتلميذة الصالحة " طابيـثـا " من أهل " يافا "، بعد أن ماتت و غسلت و وضعت في قبرها، و فيما يلي ننقل هذه القصة كما جاءت في آخر الإصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل:

" و كان في يافا تلميذة اسمها طابيـثـا، الذي ترجمته غزالة. هذه كانت ممتلئة أعمالا صالحة و إحسانات كانت تعملها. و حدث في تلك الأيام أنها مرضت و ماتت فغسلوها و وضعوها في عُـلِّـيَّـة. و لما كانت اللدُّ قريبة من يافا و سمع التلاميذ أن بطرس فيها أرسلوا رجلين يطلبان إليه أن لا يتوانى عن أن يجتاز إليهم. فقام بطرس و جاء معهما. فلما وصلوا صعدوا به إلى الـعُـلِّـيَّـة فوقفت لديه جميع الأرامل يبكين و يرين أقمصة و ثيابا مما كانت تعمل غزالة و هي معهن، فأخرج بطرس الجميع خارجا و جثا على ركبتيه و صلى ثم التفت إلى الجسد و قال: يا طابيـثـا قومي. ففتحت عينيها. و لما أبصرت بطرس جلست. فناولها يده و أقامها. ثم نادى

القديسين و الأرامل و أحضرها حية. فصار ذلك معلوما في يافا فآمن كثيرون بالرب " أعمال الرسل: 9 / 36 ـ 41.

ب ـ و بالنسبة لشفاء ذوي العاهات الخلقية المستديمة كشفاء الأبرص و المقعد من الولادة و الأعرج... إلخ.. و إخراج الشياطين من المجانين و المصروعين، فقد نقل العهد الجديد مثلها عن الحواريين و رسل المسيح عليه السلام بل عن عامة أتباعه الصالحين، و فيما يلي ذكر ذلك:

جاء في سفر أعمال الرسل (3 / 2 ـ 8):

" و كان رجل أعرج من بطن أمه يُحْمَل، كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذي يقال له الجميل ليسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل. فهذا لما رأى بطرس و يوحنا مزمعين أن يدخلا الهيكل سأل ليأخذ صدقة. فتفرس فيه بطرس مع يوحنا و قال أنظر إلينا. فلاحظهما منتظرا أن يأخذ منهما شيئا. فقال بطرس ليس لي فضة و لا ذهب و لكن الذي لي فإياه أعطيك. باسم يسوع المسيح الناصري قم و امش. و أمسكه بيده اليمنى و أقامه، ففي الحال تشددت رجلاه و كعباه فوثب و وقف و صار يمشي و دخل معهما إلى الهيكل و هو يمشي و يطفر و يسبح الله "

ـ و جاء فيه أيضا (8 / 4 ـ 8):

" فانحدر فيليبس إلى مدينة من السامرة و كان يكرز لهم بالمسيح و كان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيليبس عند استماعهم و نظرهم الآيات التي صنعها. لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم. و كثيرون من المفلوجين و العرج شفوا، فكان فرح عظيم في تلك المدينة "

ـ و فيه كذلك (14 / 8 ـ 10):

" و كان يجلس في لسترة رجل عاجز الرجلين مقعد من بطن أمه و لم يمش قط. هذا سمع بولس يتكلم. فشخص إليه و إذ رأى أن له إيمانا ليشفى، قال بصوت عظيم: قم على رجليك منتصبا. فوثب و صار يمشي "

ـ و فيما يلي إعلان عام من السيد المسيح عليه السلام عن قدرة كل من يؤمن حقا على إظهار أكبر المعجزات، جاء في إنجيل يوحنا (14 / 12):

" الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أعملها يعملها هو أيضا و يعمل أعظم منها "

و مثله قول المسيح عليه السلام أيضا لتلاميذه، لما دهشوا و تعجبوا من يبس شجرة التين فور دعاء المسيح عليها، فقال لهم:

" الحق أقول لكم: إن كان لكم إيمان و لا تشكون، فلا تفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل و انطرح من البحر فيكون. و كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه " إنجيل متى: 21 / 21 ـ 22.

قلت : فقد صار واضحا أن ظهور الخوارق و المعجزات، مهما كان شأنها عظيما، على يد شخص، لا يصلح بحد ذاته أن يعتبر مؤشرا على ألوهية هذا الشخص و إلا لوجب القول بألوهية كل الأنبياء السابقين و الحواريين و تلاميذ المسيح أيضا!!

و قد يقال : إن تلك المعجزات التي صدرت عن الأنبياء ممن سبق المسيح عليه السلام أو عن تلاميذ المسيح، لم تكن

من فعلهم أنفسه بل كانت من أفعال الله تعالى الذي أظهرها على أيديهم، أما معجزات المسيح فكانت من فعله بنفسه، لذا كانت دليلا على ألوهيته!

و للإجابة على هذا نحيل القارئ إلى القسم التاسع من الفصل الأول الذي ذكرنا فيه شواهد من الأناجيل تفيد أن المعجزات التي كان يصنعها المسيح أيضا، لم يكن يفعلها بقوته الذاتية المستقلة بل كان يستمدها من الله و يفعلها بقوة الله، أي أن الفاعل الحقيقي لها كان الله سبحانه وتعالى الذي أظهرها علي يدي المسيح لتكون شاهدا له على صحة نبوته، و نكتفي هنا بإعادة نص واحد ظاهر بين في ذلك و هو ما قاله بطرس الحواري في خطابه لبني إسرائيل بعد رفع المسيح:

" فوقف بطرس مع الأحد عشر و رفع صوته و قال لهم:... أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات و عجائب و آيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون " سفر أعمال الرسل: (2 / 14 و 22).

3 ـ رد الاستدلال بقيام المسيح حيّاً من الأموات على ألوهيته :

قال بعض أساقفة و لاهوتيي النصارى: إن الأنبياء مهما كانوا عظماء، فإن أقصى ما فعلوه هو أنهم أحيوا بعض الموتى بإذن الله، أما أن يقوموا بأنفسهم أحياء بعد موتهم فهذا ما لم يقدروا عليه أبدا، بعكس المسيح الذي " لما كان إلـها قدر بقوته الإلـهية أن يقوم من الأموات و يعود إلى الحياة و يصعد إلى السماء ممجدا إلى يومنا هذا ".

و الجواب على هذا الدليل ـ مع التسليم جدلا بأنه عليه السلام مات فعلا على الصليب و دفن ثم قام حيا بعد موته بثلاث ليال كما يدعون [28] ـ هو أن نصوص العهد الجديد نفسها تشهد بأن المسيح لم يقم من الموت بقدرته الذاتية الإلـهية، بل إن الله تعالى هو الذي أحياه و أقامه من الأموات، و عندئذ فلا يبقى في قيامه حيا بعد موته أي دليل على ألوهيته، و إلا لكان جميع البشر آلهة لأن الله تعالى سيقيمهم أحياء من قبورهم يوم القيامة!! و قد تكرر التعبير بأن " اللـهُ أقام المسيحَ من الأموات " مرات عديدة، على لسان الحواري بطرس و لسان بولس، في سفر أعمال الرسل، و فيما يلي ذكر بعض الشواهد من ذلك:

ـ جاء في سفر أعمال الرسل في خطاب القديس بطرس الحواري لرجالٍ من بني إسرائيل:

" فيسوع هذا، أقامه الله، و نحن جميعا شهود لذلك. و إذ ارتفع بيمين الله [29] و أخذ موعد الروح القدس من الآب، سكب هذا الذي أنتم الآن تبصرونه و تسمعونه " أعمال الرسل: 2 / 32 ـ 33.

ـ و فيه أيضا في خطبة أخرى لبطرس الحواري :

" و لكن أنتم أنكرتم القدوس البار و طلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. و رئيس الحيوة قتلتموه الذي أقامه الله من الأموات و نحن شهود لذلك " أعمال الرسل: 3 / 14 ـ 15. [30]

و جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية (4 / 24 ـ 25) :

" نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات. الذي أسلم من أجل خطايانا و أقيم لأجل تبريرنا "

و في نفس الرسالة (8 / 18) :

"... و إن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضا بروحه الساكن فيكم "

و في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (6 / 14) :

"... و الله قد أقام الرب (اي المسيح) و سيقيمنا نحن أيضا بقوته "

قلت: فإقامة المسيح من الأموات مماثلة لإقامتنا من الأموات التي ستحصل يوم البعث و القيامة، فلا دلالة فيها أصلا على إلهية المسيح لا من قريب و لا من بعيد.

4 ـ رد الاستدلال بسجود بعض التلاميذ للمسيح على ألوهيته :

ذُكِر في الأناجيل أن المجوس الذين قدموا من المشرق و عرفوا من النجوم بولادة المسيح، ذهبوا إليه فلما رأوه في بيت لحم و هو في المهد، آمنوا به و سجدوا له، و كذلك جاء أن مريم المجدلية و مريم أم يعقوب و التلاميذ و الأعمى الذي شفاه المسيح [31] سجدوا له عليه السلام أيضا، و لم يرد أن عيسى عليه السلام منعهم من السجود له، فقال بعض أساقفة النصارى: إن هذا دليل واضح على ألوهية المسيح لأن السجود لا يكون إلا لله وحده، فلولا أن المسيح كان إلـها حقا لما رضي بسجود تلاميذه له.

و نقول في الإجابة عن هذه الشبهة: إن كل عالم بالكتاب

المقدس Bible يعرف أنه قد جاء في كثير من مواضعه ذكر سجود البشر للأنبياء و أحيانا سجود النبي للنبي بل حتى أحيانا سجود الأنبياء للبشر، مما يؤكد أنه في عرف الكتاب المقدس لا يعتبر السجود عبادة محضة خاصة بالله، بل هو أعم من ذلك، فقد يكون عبادة، و قد يكون مجرد خضوع و احترام للمسجود له، و بالتالي في هذه الحالة الأخيرة يجوز أداؤه لغير الله. و ليس هذا خاصا بالكتاب المقدس بل أثبت القرآن أيضا ذلك الأمر في قصصه عن الأمم السابقة، فكل مسلم يعرف أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، و يعرف قصة سجود أبوي يوسف و إخوته الأحد عشر ليوسف عليه السلام. لكن دعنا الآن نذكر الشواهد من الكتاب المقدس:

ـ في سفر التكوين (23 / 6): " فقام إبراهيم و سجد لشعب الأرض لبني حث " وفيه في نفس الإصحاح كذلك: " و سجد إبراهيم أمام شعب الأرض " 23 / 12.

ـ و في سفر التكوين (33 / 3 ـ 7): أن يعقوب عليه السلام، سجد و نساؤه و أولاده لعيسو عندما التقوا به.

ـ و فيه أيضا (42 / 6 و 43 / 26 و 28): أن إخوة يوسف عليه السلام سجدوا له.

ـ و فيه أيضا (48 / 12): أن يوسف عليه السلام سجد أمام وجه أبيه.

ـ و في سفر الخروج (18 / 7): أن موسى عليه السلام خرج لاستقبال حميه و سجد و قبله.

ـ و في سفر صموئيل الأول (24 / 8): أن داود عليه السلام : " نادى وراء شاول قائلا يا سيدي الملك، فلما التفت شاول

إلى وراءه، خر داود على وجهه إلى الأرض و سجد ".

ـ و في سفر صموئيل الأول أيضا (25 / 23 ـ 24) ما نصه:

" و لما رأت أبيجايل داود أسرعت و نزلت عن الحمار و سقطت أمام داود على وجهها و سجدت إلى الأرض و سقطت على نعليه و قالت: علي أنا يا سيدي هذا الذنب و دع أمتك تتكلم... "

ـ و في سفر الملوك الأول (1 / 16): " فخرت بشبع و سجدت للملك (داود) ".

ـ و في سفر الملوك الأول أيضا (1 / 22 ـ 23) ما نصه: " و بينما هي مكلمة إذا ناثان النبي داخل. فأخبروا الملك (داود) قائلين هو ذا ناثان النبي. فدخل إلى أمام الملك (داود) و سجد للملك على وجهه إلى الأرض ".

ـ و في سفر الملوك الثاني (12 / 5): أن بني الأنبياء سجدوا للنبي إيلياء عليه السلام لما ظهرت منه المعجزة.

و الشواهد على ذلك كثيرة نكتفي بما ذكرناه.

و بهذا نكون قد انتهينا من تفنيد جميع الشبهات و الأدلة من الإنجيل التي تشبث بها الذين غلوا في دينهم و ألهوا نبيهم المسيح عليه السلام، سواء من كلماته أو من أفعاله و أحواله، و ذلك باعتمادنا على نصوص الأناجيل و الكتاب المقدس نفسها لا غير، و نهيب بكل منصف أن يترك التعصب جانبا و يسمع لنداء الله تعالى إذ يقول:

" ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل و أمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم

انظر أنى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا و لا نفعا و الله هو السميع العليم؟. قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق و لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل و أضلوا كثيراً و ضلوا عن سواء السبيل " المائدة / 75 ـ 77. صدق الله العظيم.

و ننتقل الآن للفصل الأخير الذي نثبت فيه نفي إلـهية المسيح بالاستناد لأقوال القديسين الكبيرين: بولس و يوحنا، ثم نرد على شبهات المؤلهين للمسيح من أقوال ذينك القديسين، و الله الموفق.

----

[1] كما جاء مثلا في أعمال الرسل:13/6 أن بولس قال للساحر الضليل: " أيها الممتلىء كل خبث و كل غش يا ابن إبليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد كل سبل الله المستقيمة؟ ".

[2] رواه السيوطي في الجامع الصغير عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، و عزاه إلى أبي القاسم بن حيدر في مشيخته، و رمز له بالحسن. (الجامع الصغير: ج1 / ص 110).

[3] من الجدير بالذكر أن الله تعالى ذكر عن اليهود و النصارى اعتبارهم أنفسهم أبناء الله و أحباؤه فرد عليهم هذا الغرور الباطل، دون أن يناقشهم في موضوع عبارة أبناء الله لأنه من الواضح أن مقصودهم منها معنى مجازي، فقال:"و قالت اليهود و النصارى نحن أبناء الله و أحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء

و يعذب من يشاء و لله ملك السموات والأرض و ما بينهما و إليه المصير" المائدة/ 17

[4] كما جاء مثلا في إنجيل يوحنا: 1/14 و 18، و 3 / 16.

[5] متى: 6 / 9.

[6] هذا الشاهد و الذي قبله منقول بلفظ الترجمة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس، بيروت، 1989.

[7] بالاستفادة من كتاب الإمام أبي حامد الغزالي: الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل، بتحقيق الد. محمد الشرقاوي، القاهرة، ص 102 ـ104 مع تصرف كبـير.

[8] أي أنه يدعو أيضا للذين سيؤمنون به في المستقبل بواسطة دعوة و كلام الحواريين و المبشرين.

[9] المصدر السابق، ص 105.

[10] صحيح البخاري: 81 ـ كتاب الرقاق / 38 ـ باب التواضع (ج 7 / ص 190).

[11] هذه الجملة وردت في إنجيل يوحنا:10/ 38، و تكررت ثانية فيه بعبارة: " صدقوني أني في الآب و الآب فيَّ " يوحنا: 14 / 11. و استدلالهم بها ظاهر لا يحتاج لتوضيح.

[12] راجع الصفحات من 69 إلى 76 من الفصل الأول.

[13] مستفاد من كتاب " إظهار الحق " للشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: ج 3 / ص 759.

[14] إنجيل يوحنا: 3 / 13.

[15] تفسير الكتاب المقدس، تأليف جماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرانسس دافيد سن. بيروت، دار منشورات النفير، 1988. ج 5 / ص 242.

[16] المرجع السابق: ج 5 / ص 242.

[17] من الترجمة العربية الجديدة للإنجيل، نشر جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، بيروت 1988.

[18] أي ظهور حقيقة ثالثة منه و هي المسيح الإله ـ الإنسان، المركب من لاهوت و ناسوت الموصوف بجميع ما يجب لكل واحد منهما من حيث هو إله أو إنسان، المغاير لكل واحد من الحقيقتين!.

[19] مستفاد من كتاب: الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل، للإمام الغزالي: ص 158 ـ 161، بتصرف و اختصار كثير.

[20] أخرج الترمذي عن أبي هريرة، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : " متى كنتَ أو كُتبتَ نبيا؟ " قال: " كنت نبيا و آدم بين الروح و الجسد ". و قال الترمذي: حسن صحيح و رواه الحاكم في مستدركه و صححه أيضا. و رواه الطبراني أيضا عن ابن عباس.

[21] لوقا: 20 / 41 ـ 44، و متى: 22 / 41 ـ 45، و مرقس: 12 / 35 ـ 37. و اللفظ المذكور للوقا و هو منقول عن الترجمة العربية الجديدة للعهد الجديد، نشر جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، بيروت 1988.

[22] متى: 9 / 5، و مرقس: 2 / 10.

[23] كتاب سوسنة سليمان: ص 153.

[24] راجع الصفحة 129 ثم الصفحات 181 ـ 189 القادمة من هذا الكتاب التي فصلنا فيها الموضوع كاملا.

[25] راجع الصفحة 107 من هذا الكتاب.

[26] انظر العهد القديم: سفر الخروج: الإصحاح 7 / الفقرات: 8 ـ13.

[27] انظر العهد القديم: سفر الملوك الأول: الإصحاح 17 / الفقرات: 17 ـ 23.

[28] نكرر الملاحظة التي سبق و قلناها و هي أننا إنما نحاجج النصارى بما في كتبهم التي يعتقدون إلهاميتها كلها، بغض النظر عن أننا نوافق على كل ما ذكر فيها أو لا، إذ من المعلوم أن القرآن الكريم أوضح الحق في شأن السيد المسيح عندما أكد أنه {و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم...... بل رفعه الله إليه}.

[29] عبارة الترجمة العربية الجديدة لجمعيات الكتاب المقدس المتحدة (1988) اوضح هنا حيث تقول: " فيسوع هذا أقامه الله و نحن كلنا شهود على ذلك، فلما رفعه الله بيمينه إلى السماء نال من الآب الروح القدس الموعود به فأفاضه علينا و هذا ما تشاهدون و تسمعون ".

[30] و انظر أيضا تكرر هذه العبارة في أعمال الرسل: 4 / 10 و 10 / 40 و 13 / 30 و 17 / 31.

[31] متى: 2 / 2 و 11، و متى: 28 / 9، و لوقا: 24 / 52، و يوحنا: 9 / 38.

الفصل الثالث

نفي ألوهية المسـيح في رسائل القديسين بولـس و يوحـنا

أـ نفي ألوهية المسـيح في رسائل بولـس

يرى كثير من المحققين الغربيين، الذين كتبوا عن المسيحية و عقائدها، في القرنين الأخيرين، و مثلهم كذلك عدد من الكتاب المسلمين، أن بولس ـ القديس الأكبر للنصرانية و صاحب ال 14 رسالة الملحقة بالأناجيل في كتاب العهد الجديد ـ هو واضع فكرة إلـهية المسيح و مبتدع عقيدة التجسد، و كنت أيضا من جملة من يعتقد أن بولس هو الذي أدخل هذه البدعة إلى النصرانية.

إلى أن قيَّض الله تعالى لي اقتناء و مطالعة الترجمة العربية الحديثة للكتاب المقدس، حسب الرواية الكاثوليكية، التي نشرتها الرهبانية اليسوعية في بيروت عام 1989، و المحلاة بالمقدمات لكل سـفر و الحواشي الممتازة المتـضـمنة لشـروح و تعليقات و إحالات مفيدة للغاية إذ تساعد على إدراك معنى كثير من العبارات المتشابهة الغامضة بالرجوع إلى ما يماثلها في المواضع الأخرى من الكتاب المقدس، فتبين لي لدى دراسة رسائل بولس و الاستضاءة بتلك الحواشي، و مراجعة الترجمة الفرنسية العصرية المراجَعة المحققة للكتاب المقدس، وترجمته الإنجليزية العصرية المراجَعة المحققة أيضا، سيما للمواضع المتشابهة و الحساسة في النص العربي، تبين أن عبارات بولس التي يظن عادة أنها نص منه على تأليه المسيح، لا تخرج عن أحد

ثلاثة أمور:

1 ـ إما هي ترجمة احتمالية مرجوحة للنص اليوناني الأصلي، الذي يمكن ـ كما تشير الحواشي و الترجمات المختلفة ـ أن يترجم بصورة أخرى، تبعا للتغُّير المحتمل للموضع، المشكوك به، للفاصلة أو النقطة في النص الأصلي، مما يجعل العبارة تتغير تغيرا تاما من نص على إلهية المسيح إلى كلام عن إلهية الله تعالى الآب!.

2 ـ أو هي عبارات مجازية، من الخطأ فهمها على معناها الحرفي الظاهر، و ذلك بدلالة سياق الكلام، و بدلالة القرائن الأخرى، كملاحظة موارد استعمال بولس لنفس هذه الألفاظ في المواضع الأخرى من رسائله، مما يبين أن المراد الحقيقي لبولس من هذه الألفاظ هو معنى مجازي استعاري و ليس المعنى الحرفي.

3 ـ أو هي عبارة تتضمن وصف المسيح بلفظة مشتركة، مثل لفظة: " الربّ "، التي أحد معانيها هو الله، لكن لها معنى آخر هو: السيد، مع وجود قرائن تؤكد أن بولس يريد منها هذا المعنى الثاني غير التأليهي.

و بالتالي اتضح لي لدى التحقيق أنه لا توجد في رسائل بولس أي عبارة أو نص صريح قاطع في تأليه للمسيح، بمعنى اعتباره الله تعالى نفسه الذي تجسد و نزل لعالم الدنيا، بل على العكس، نجد في رسائل بولس، نصوص واضحة و محكمة لا تحتمل أي تأويل، تؤكد أن عقيدة الرجل كانت توحيدية محضة، حيث يؤكد على تفرّد الله تعالى (الآب) بالإلـهية و الربوبية و الخالقية و استحقاق العبادة، و أنه وحده الإلـه الخالق الحكيم القدير بذاته، الذي لم يُرَ و لا يُرَى، الذي أبدع المخلوقات لوحده و أوجد جميع الكائنات بمن فيهم المسيح نفسه، الذي يعتبره بولس بكر كل خليقة،

أي أول مخلوقات الله عز و جل، و يصرح بولس بأن الله تعالى إله المسيح و سيده.

نعم يعتقد بولس أن الله تعالى، خلق بالمسيح و فيه سائر الكائنات، أي ينظر للمسيح بمنظار اللوجوس في الفلسفة الأفلوطينية الحديثة التي ترى ـ حسب نظرية الفيض ـ أن اللوجوس (العقل الكلي) هو أول ما فاض عن المبدأ الأول (الله) و به و فيه وجدت سائر الكائنات، فبولس يرى أن المسيح هو ذلك الكائن الروحي الوسيط الذي فاض عن الله و به و فيه خلق الله سائر الكائنات، و اتخذه الله ابنا حبيبا و جعله الواسطة بينه و بين خلقه، ثم صيره في آخر الزمن، في الميعاد المقرر أزلا، إنسانا بشرا، و أرسله لخلاص بني الإنسان، بعمله التكفيري العظيم، الذي تجلى ـ حسب قول بولس ـ بآلامه و سفك دمه و موته على الصليب، تكفيرا لخطايا البشر و فداء لهم بنفسه، فكرمه الله تعالى لأجل ذلك، و مجَّده و رفع قدره فوق كل الكائنات و أجلسه عن يمينه فوق عرشه (يتفق النصارى هنا على تنزيه الله تعالى عن حدود المكان و الزمان و يفهمون هذه العبارات على نحو غير تجسيمي) و جعله شفيعا للمؤمنين و قاضيا و حاكما بينهم يوم الدين، ثم ليخضع في النهاية لأبيه الروحي و خالقه و إلهه: الله تعالى الذي هو ـ حسب تعبير بولس ـ الكل في الكل.

تلك هي خلاصة عقيدة بولس في المسيح، كما تترشح من رسائله و تعاليمه، و هي عقيدة، و إن كانت لا تخلو من غلو و خلط بين الدين و الفلسفة اليونانية [1] ، و مبالغة بحق المسيح لا دليل عليها في الإنجيل، إلا أنها مع ذلك حفظت الحد الفاصل بين الله تعالى (الآب) في وحدانيته و تفرده بالقدم و الإلـهية، و بين المسيح المخلوق و الخاضع لأبيه و إلهه الله تعالى ـ على حد تعبير بولس ـ، فلم تشرك المسيح مع الله في الذات و استحقاق العبادة و لا ساوت بينه و بين

الله تعالى في الإلهية ـ كما فعل ذلك للأسف دستور الإيمان النصراني الذي قرره مجمع نيقية ـ بل أبقته في دائرة الكائن المخلوق و العبد الخاضع لسلطان الله تعالى العابد له و المتبع لأمره، و بالتالي حافظت على وحدانية ذات الله تعالى.

و فيما يلي سنبين الشواهد على ما نقول، ثم نعقب ذلك بالرد على شبهاتهم من بعض أقوال بولس المشتبهة التي تحتاج لتوضيح.

هذا و سنعتمد في الغالب على الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية في بيروت للعهد الجديد.

القسم الأول: أقاويل بولـــس الصريحة في نفي إلـــهية المســيح و إفراد الله تعالى وحده بالألوهية

أولاً : أقوال بولـس في توحيد الذات الإلـهية و إفراد الله تعالى بالإلـهية و الربوبية و الخالقية و القدرة المستقلة:

1 ـ يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (و في الطبعات البروتستانتية تسمى كورنثوس) (8 / 4 ـ 6):

" و أما الأكل من لحم ما ذبح للأوثان فنحن نعلم أن لا وثن في العالم، و أن لا إلـه إلا الله الأحد [2]. و قد يكون في السماء أو في الأرض ما يزعم أنه آلهة، بل هناك كثير من الآلهة و كثير من الأرباب، و أما عندنا نحن فـليس إلا إلـه واحد و هو الآب، منه كل شيء و إليه نحن أيضا نصير. و رب واحد و هو يسوع، به كل شيء و به نحن أيضا "

قلت: فهذا النص صريح في انحصار الإلـهية بالله الآب وحده (لا إله إلا الله الأحد) (و أما عندنا فليس إلا إله واحد: وهو الآب، منه كل شيء)، و أما وصف المسيح بالرب فلا يراد به الإلـهية و إلا لانتفى الحصر لها بالآب الذي كرره في كلامه هنا مرتين، بل المراد ـ كما سنوضحه فيما بعد ـ السيد المعلم.

2 ـ و يقول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (4 / 5 ـ 6):

" و هناك رب واحد و إيمان واحد و معمودية واحدة، و إلــهٌ واحدٌ أبٌ لجميع الخلق و فوقهم جميعا يعمل بهم جميعا و هو فيهم جميعا "

قلت: فهنا أيضا أكد أن الآب هو وحده الإلــه لجميع الكائنات.

3ـ و يقول بولس في رسالته الأولى إلى طيموتاوس (2 / 5):

" لأن الله واحد، و الوسيط بين الله و الناس واحد و هو إنسان أي المسيح يسوع "

قلت: و هذه الجملة غاية في الصراحة و الوضوح في إفراد الله تعالى بالألوهية و نفيها عن المسيح إذ هي تؤكد أولا أن الله واحد، و أن المسيح شيء آخر، حيث هو الواسطة بين الله و الناس، و بديهي أن الواسطة غير الموسوط، علاوة على تأكيده أن المسيح، ككلٍّ، إنسانٌ، و بهذا يتم الفصل بين الله و المسيح بكل وضوح، و تخصص الألوهية لله تعالى وحده فقط، فأنى يؤفكون !!

4 ـ ثم يقول بولس في نفس الرسالة، بعد جملته تلك (6 / 13 ـ 16):

" و أوصيك في حضرة الله الذي يحيي كل شيء و في حضرة يسوع المسيح الذي شهد شهادة حسنة في عهد بنطيوس بيلاطس، أن تحفظ هذه الوصية و أنت بريء من العيب و اللوم إلى أن يظهر ربنا يسوع المسيح فسَــيُظْـهِرُه في الأوقات المحددة له:

المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك و رب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنا في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس و لا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة و القدرة الأبدية، آمين." (حسب الترجمة البروتستانتية)

ذلك السعيد القدير وحده ملك الملوك و رب الأرباب الذي له وحده الخلود و مسكنه نور لا يقترب منه وهو الذي لم يره إنسان و لا يستطيع أن يراه، له الإكرام و العزة الأبدية. آمين."(حسب الترجمة الكاثوليكية للرهبانية اليسوعية)

قلت: و هذا النص أيضا صريحٌ واضحٌ في توحيد الله و اعتباره وحده ملك الملوك و رب الأرباب، كما هو صريح في المغايرة و التمايز بين الله تعالى في مجده و علاه، الذي وحده لا يموت و لا يُرى، و بين المسيح، الذي سيظهره الله.

5 ـ و فيما يلي نص خطبة خطبها بولس في أعيان مدينة أثينا، كما جاءت في أعمال الرسل (17 / 22 ـ 32):

" يا أهل أثينة، أراكم شديدي التديّن من كل وجه، فإني و أنا سائر أنظر إلى أنصابكم وجدت هيكلا كتب عليه: إلى الإلـه المجهول!. فَما تعبدونه أنتم و تجهلونه، فذاك ما أبشركم به.

إن الله الذي صنع العالم و ما فيه، و هو رب السماء و الأرض، لا يسكن في هياكل صنعتها الأيدي، و لا تخدمه أيدي بشرية، كما لو كان يحتاج إلى شيء. فهو الذي يهب لجميع الخلق الحياة و النفس و كل شيء. فقد صنع جميع الأمم البشرية من أصل واحد، ليسكنوا على وجه الأرض كلها، و جعل لسكناهم أزمنة موقوتة و أمكنة محدودة، ليبحثوا عن اللهِ لعلهم يتحسسونه و يهتدون إليه، مع أنه غير بعيد عن كلٍّ منا. ففيه حياتنا و حركتنا و كياننا، كما قال شعراء منكم: فنحن أيضا من سلالته. فيجب علينا، و نحن من سلالة الله، ألا نحسَبَ اللاهوت يشبه الذهب أو الفضة أو الحجر، إذ مَـثَّـلَه الإنسان بصناعته و خياله. فقد أغضى الله طرفه عن أيام الجهل و هو يعلن الآن للناس أن يتوبوا جميعا و في كل مكان، لأنه حدد يوما يدين فيه العالم دينونة عدل عن يد رجل أقامه لذلك، و قد جعل للناس أجمعين برهانا على الأمر، إذ أقامه من بين الأموات "

قلت: فقد تكلم كلاما جميلا عن الله تعالى و لم يأت بذكر على أن المسيح كان هو ذاك الله الذي تكلم عنه، بل علىالعكس قال أن الله أقام رجلا (أي إنسانا) ليدين العالم عن طريقه و أماته ثم بعثه ليجعله عَلَمَاً و دليلا على يوم القيامة، و هكذا نلاحظ التمايز و الفصل التام بين الله في وحدانيته و المسيح.

ثانياً: أقوال بولس الواضحة في توحيد الأفعال [3] و في توحيد العبودية أي صرف كل مظاهر العبادة مثل الصلاة و الدعاء و الشكر و الحمد والثناء و الاستغاثة و الالتجاء لله الآب وحده دون غيره :

1ـ يقول بولس في رسالته إلى أهل فيليبي (4 / 6 ـ 7):

" لا تكونوا في هم من أي شيء كان. بل في كل شيء لترفع طلباتكم إلى الله بالصلاة و الدعاء مع الشكر. فإن سلام الله الذي يفوق كل إدراك يحف قلوبكم و أذهانكم في المسيح يسوع "

قلت: فطلب الحوائج و الصلاة و الدعاء و الشكر يجب رفعها لله تعالى، لكي ينزل الله سكينته على المؤمنين بواسطة المسيح و لكي يثبت قلوبهم ـ في المصاعب ـ على الإيمان و الثقة بالمسيح و محبته.

2 ـ و يقول في رسالته إلى أهل أفسس (3 / 14 ـ 20) :

" لهذا أجثو على ركبتي للآب، فمنه تستمد كل أسرة اسمها في السماء و الأرض، و أسأله أن يهب لكم، على مقدار سِعَة مجده، أن تشتدوا بروحه ليقوى فيكم الإنسان الباطن [4] و أن يقيم المسيح في قلوبكم الإيمان، حتى إذا تأصلتم في المحبة و أسستم عليه، أمكنكم أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض و الطول و العلو و العمق و تعرفوا محبة المسيح التي تفوق كل معرفة فتمتلئوا بكل ما لله من كمال. ذاك الذي يستطيع بقوته العاملة فينا أن يبلغ ما يفوق كثيرا كل ما نسأله و نتصوره، له المجد في الكنيسة و في المسيح يسوع على مدى الأجيال و الدهور آمين ".

قلت : فبولس يؤكد أن الصلاة (الجثو على الركبتين)، إنما هي للآب فقط، لأنه منه وحده يستمد كل شيء اسمه و وجوده كما أنه بيده تعالى قلوب العباد و منه تعالى الثبات و التوفيق و الهداية التي ينزلها على من يشاء بواسطة الملائكة و المسيح، فالمسيح هو مَجرَى الفيض و واسطة المدد فحسب، لذا فالتسبيح و المجد لله تعالى المعطي و المفيض، و يا ليت النصارى يأخذون بهذا و يكفون عن عبادة المسيح، و الجثو للصلبان و التماثيل !

3 ـ و يقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (1/ 3 ـ 4 و 9 ـ 10):

" تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، أبو الرأفة و إلـه كل عزاء، فهو الذي يعزينا في جميع شدائدنا لنستطيع، بما نتلقى نحن من عزاء من الله أن نعزي الذين هم في أية شدة كانت... لئلا نتكل على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات، فهو الذي أنقذنا من أمثال هذا الموت و سـيُـنـقِـذُنا منه: و عليه جَعَـلْـنَا رجاءَنا بأنه سينقذنا منه أيضا. "

ثم يقول في نفس الرسالة أيضا :

".... و إن الذي يثبتنا و إياكم للمسيح، و الذي مسحنا، هو اللـــه، و هو الذي ختمنا بختمه و جعل في قلوبنا عربون الروح...

الشكر لله الذي يستصـحبنا دائما أبدا في نصرِهِ بالمسيح و ينشر بأيدينا في كل مكان شذى معرفته... "

4 ـ و يقول في رسالته الأولى لأهل قورنتس (1/ 4 ـ 8 ـ 9. و 15 / 57): " إني أشكر الله دائما في أمركم على ما أوتيتم من نعمة الله في المسيح يسوع... و هو الذي يثبتكم إلى النهاية حتى تكونوا بلا عيب يوم ربنا يسوع المسيح. هو الله أمين دعاكم إلى مشاركة ابنه يسوع المسيح ربنا (ثم يقول):... فالشكر لله الذي آتانا النصر عن يد ربنا يسوع المسيح ".

قلت: في كل هذه العبارات ـ و مثلها الكثير في رسائل بولس ـ نلاحظ التأكيد على أن الله تعالى مولى النعم و مصدر الرحمة و الفيض و موضع الرجاء و الثقة، و هو هادي

النفوس و مزكيها و مولى المؤمنين و ناصرهم، أما دور المسيح في ذلك، فهو الوسـيلة و الواسطة التي اختارها الله لينزل رحمته بواسطتها و يفيض تخليصه و هدايته و عزاءه و نصره عبرها، فالرحمة و النعمة الآتية من المسيح مصدرها في الحقيقة هو الله الآب الفياض والمنعم ابتداء و ذاتا، لذا نجد بولس يرفع الشكر و الثناء و الصلاة و التمجيد لله تعالى.

ثالثاً : أقوال بولـس الصريحة الواضحة في أن اللهَ تعالى إلـهُ المسـيحِ و خالقُهُ و سيدُهُ و أن المسيحَ عبدٌ مخلوقٌ خاضعٌ لسلطان الله :

1 ـ أما أن المسيح عليه السلام مخلوق لله فقد جاء واضحا في رسالة بولس إلى أهل قولسي (أو كولوسي) (1 /15) حيث قال يصف المسيح:

" هو صورة الله الذي لا يرى و بكر كل خليقة "

قلت : أما عبارة صورة الله الذي لا يرى، فسأتكلم عنها مفصلا عندما سنتعرض بعد قليل لتفنيد الشبهات التي يتمسك بها المؤلهون للمسيح من كلمات بولس، أما مرادنا من العبارة فهو وصف المسيح بأنه " بكر كل خليقة " التي تصرح بأن المسيح هو باكورة خليقة الله أي أول مخلوقات الله المتصدر لعالم الخلق، و بديهي أن المخلوق عبد لخالقه و لا يكون إلـها أبدا.

2 ـ و أما أن اللهُ تعالى إلـهُ المسيح فقد جاء صريحا في قول بولس في رسالته إلى أهل أفسس (1 / 16 ـ 17):

" لا أكف عن شكر الله في أمركم، ذاكرا إياكم في صلواتي

لكي يهب لكم إلــهُ ربِّنا يسوع المسيحِ، أبو المجد، روحَ حكمة يكشف لكم عنه تعالى لتعرفوه حق المعرفة "

قلت: فهذا بيان صريح في أن الله تعالى، أبا المجد، هو إلــهُ يسوع، و بالتالي يسوع عبده، و هذا نفي قاطع لإلـهية المسيح لأن الإله لا يكون له إلـه !

3 ـ و أما أن المسيح يستمد قوته من الله و يخضع في النهاية، ككل المخلوقات، لله تعالى، فقد جاء صريحا في كلام بولس التالي، في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (كورنثوس): (15 / 24ـ 28):

" ثم يكون المنتهى حين يسلِّم (المسيحُ) المُلْـكَ إلى اللهِ الآبِ بعد أن يكون قد أباد كل رئاسة و سلطان و قوة. فلا بد له (أي للمسيح) أن يملك حتى ((يجعل جميع أعدائه تحت قدميه))، و آخر عدو يبيده هو الموت، لأنه ((أخضع كل شيء تحت قدميه)). و عندما يقول: ((قد أخضع له كل شيء)) فمن الواضح أنه يستثني الذي أخضَعَ له كلَّ شيء. و متى أخضَع له كل شيء، فحينئذ، يخضع الابن نفسه لذاك الذي أخضَعَ له كلَّ شيء، ليكون اللهُ كل شيء في كل شيء. "

قلت: تظهر من هذا النص الحقائق التالية:

¨ أن المُلْكَ الحقيقيَ الأصيلَ لِلَّهِ الآبِ وحدَه، و أما السلطان و المُلْكُ الذي أوتيه المسيح، فهو من عطاء الله و موهبته، و هو أمانة لأداء رسالة محددة وفق مشيئة الله، ثم يسلم المسيح فيما بعد الأمانة لصاحبها الحقيقي.

¨ أن المسيح لم يخـضِع شيئا من قواتِ الشر في العالم بقوته الذاتية، بل الله تعالى هو الذي أخضعها له.

¨ أن المسيح نفسَه، بعد أن ينصره الله على قوى الشر و يجعلها تحت قدميه، سيخضع بنفسه لله ليكون الله تعالى وحده الكل في الكل. و يذكرنا هذا بقوله تعالى في قرآنه المجيد: ((و أن إلى ربك المنتهى)).

و كل نقطة من هذه النقاط الثلاث تأكيد واضح على عدم إلـهية المسيح و كونه محتاجا لله و خاضعا له سبحانه و تعالى، و على انحصار الإلهية بالله الآب وحده.

4 ـ و هاك قول آخر لبولس يؤيد أيضا ما قلناه، قال في رسالته الثانية إلى كورنثوس (13 /4):

" أجل، قد صُـلِبَ (أي المسيح) بضعفه، لكنه حيٌ بقوة الله. و نحن أيضا ضعفاء فيه، و لكننا سنكون أحياء معه بقدرة الله فيكم. "

قلت: فما أصرح هذه العبارة في تأكيد عبودية المسيح لله و عدم إلـهيته، حيث يقول أنه أي المسيح ضعيف بنفسه لكنه حي بقوة الله تعالى، مثلنا نحن الضعفاء بأنفسنا و لكن الأحياء بقوة الله تعالى.

5 ـ و أما أن اللهَ تعالى سيدُ المسيح و مولاه الآمرُ له، فجاء واضحا في قول بولس في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس أيضا (11 / 3):

" و لكني أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح و رأس المرأة هو الرجل و رأس المسيح هو الله ".

قلت: من الواضح أنه ليس المراد هنا بالرأس، معناه الحقيقي، بل المراد معنىً مجازيٌّ للرأس هو "الرئيس

المُطاع و السيد الآمر" [5]. فهذا النص يقول أنه كما أن الرجل هو سيد المرأة و رئيسها القوام عليها و الذي ينبغي عليها إطاعته [6]، فكذلك المسيح عليه السلام سيد الخلق (في عصره) الذي ينبغي على الناس إطاعته و الامتثال لأمره، و الله تعالى سيد المسيح و رئيسه و القوام عليه، الذي يجب على المسيح إطاعته و الامتثال لأمره. أفليس هذا رد صريح للادعاء بأن المسيح هو الله ذاته أو أنه إله مماثل لأبيه؟!

رابعاً: تأكيد بولس الدائم، على الغـيـريـّـة الكاملة بين الله تعالى و المسـيح عليه السلام و التعبير عنهما دائما ككائنين اثنين و شخصين منفصلين :

من أوضح الأدلة على عدم اعتقاد بولس إلـهية المسيح ما يظهر في كل عبارة من عبارات رسائله من فصل و تمييز واضحين بين الله، و الذي يعبر عنه غالبا بالآب أو أبينا، و المسيح الذي يعبر عنه غالبا بالرب أو ربنا، و اعتبارهما شخصين اثنين و كائنين منفصلين. و توضيح ذلك أن بولس يؤكد أن الله واحد أحد لا إله غيره، كما مر، كما يؤكد ألوهية الآب، و يؤكد أن المسيح غير الآب، فبالنتيجة لا يمكن أن يكون المسيح إلـها ـ في نظر بولس ـ لأنه لو كان إلـها لصار هناك إلـهين اثنين، طالما أن المسيح غير الآب، و هذا ما يؤكده بولس عندما يؤكد أن الله واحد لا إله غيره. و أعتقد أن المسألة واضحة لا تحتاج لتأمل كبير! و الشواهد على هذا الموضوع ـ أعني أن الله غير المسيح و أنهما اثنين ـ من كلام بولس، كثيرة جدا، مر بعضها فيما سبق، و نضيف هنا بعض الشواهد الأخرى لمزيد من التوضيح:

1 ـ الديباجة الدائمة التي يفتتح بها بولس رسائله فيقول:

" عليكم النعمة و السلام من لدن الله أبينا و الرب يسوع المسيح " [7]

2 ـ في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (3 / 22):

" كل شيء لكم و أنتم للمسيح و المسيح لله "

3 ـ و في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيقي (2 / 16 ـ 17):

" عسى ربنا يسوع المسيح نفسه، و الله أبونا الذي أحبنا و أنعم علينا بعزاء أبديٍّ و رجاء حسنٍ، أن يعزيا قلوبكم و يثبتاها في كل صالح من عمل و قولٍ "

4 ـ و في رسالته إلى أهل أفسس (1 / 19 ـ 22) يتحدث بولس عن عمل الله الذي عمله في المسيح فيقول:

"... إذ أقامه من بين الأموات و أجلسه إلى يمينه في السموات فوق كل صاحب رئاسة و سلطان و قوة و سيادة و فوق كل اسم يسمى به مخلوق، لا في هذا الدهر وحده بل في الدهر الآتي أيضا، و جعل كل شيء تحت قدميه و وهبه لنا فوق كل شيء رأسا للكنيسة "

و هذا الموضوع نفسه تكرر مرارا في رسائل بولس. انظر على سبيل المثال: أعمال الرسل: 13 / 30، و رسالته إلى أهل رومية: 8 / 11 و 10 / 9، و رسالته الأولى إلى أهل تسالونيقي: 1 / 10، و رسالته إلى أهل أفسس: 1 / 20 و رسالته إلى أهل قورنتس: 6 / 14.

ففي كل هذا تأكيد واضح وضوح الشمس في رابعة النهار

على التمييز و الفصل الكامل بين الله و المسيح و أنهما اثنان لا واحد.

خامساً: بولس يصف المسيح بصفات ينفيها عن الله و يـنـزِّه الله عنها:

1 ـ بين بولس مراراً موت المسيح و أنه دفن و بقي في قبره ثلاثة أيام إلى أن بعثه الله تعالى حيا: انظر رسالته إلى رومية: 8 / 34 و 14 / 9، و رسالته إلى أهل غلاطية: 2 / 21، و رسالته إلى أهل فيليبي: 2 / 8.. الخ.

هذا في حين يقول بولس واصفا الله تبارك و تعالى: "..... المبارك العزيز الوحيد، ملك الملوك و رب الأرباب الذي وحده له عدم الموت ساكنا في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس و لا يقدر أن يراه، الذي له الكرامة و القدرة الأبدية. آمين. " [8]

2 ـ كما ذكر بولس في رسائله مرارا أن المسيح تألم و عانى الشدائد، فعلى سبيل المثال نجده يقول في رسالته إلى أهل كولوسي (/ 24): "... أفرح في آلامي لأجلكم و أكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة "، أو يقول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس (1 / 5): " فكما تفيض علينا آلام المسيح، فكذلك بالمسيح يفيض عزاؤنا أيضا ".

هذا في حين أن بولس، لما كان يقوم بالتبشير مع برنابا، في منطقة إيقونية، و ظهرت على أيديهما معجزات في مدينة لسترة حيث أقاما رجلا مقعدا خلقة فجعلاه يمشي ـ كما جاء في سفر أعمال الرسل ـ، و هجم وثنيو المدينة عليهما معتقدين أنهما إلهين نزلا من السماء! و أرادوا أن يقدموا

لهما ذبائح!! فصاحا (أي بولس و برنابا) في أولـئك الوثنيين الجهلة قائلين:

" أيها الرجال! لماذا تفعلون هذا؟ نحن أيضا بشر تحت آلام مثلكم نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإلـه الحي الذي خلق السموات و الأرض و البحر و كل ما فيها... " أعمال الرسل: 14 / 8 ـ 15.

فاعتبر بولس أن كونه و زميله بشرا تحت آلام أكبر دليل على أنهما ليسا بآلهة. و بالتالي فانطلاقا من هذا المنطق الصحيح لا يمكن أن يكون المسيح إلـها برأي بولس، لأن المسيح أيضا كان بشرا تحت شدائد و آلام كما مر معنا من أقوال بولس التي سقناها آنفا.

القسم الثاني: شبهات المؤلهين للمسيح من عبارات بولـــس و الرد عليها

الشبهة الأولى

قول بولس عن المسيح: " و هو فوق كل شيء إلـهٌ مباركٌ أبد الدهور ". الرسالة إلى أهل رومة: 9/ 3 ـ 5.

الرد على هذه الشبهة:

في البداية ننقل تمام الفقرة التي جاءت ضمنها تلك الجملة. يقول بولس:

" لقد وددت لو كنت أنا نفسي محروما و منفـصلا عن

المسيح في سبيل أخوتي بين قومي باللحم و الدم، أولـئك الذين هم بنو إسرائيل و لهم التبني و المجد و العهود و التشريع و العبادة و المواعيد و الآباء، و منهم المسيح من حيث إنه بشر، و هو فوق كل شيء إلـه مبارك أبد الدهور. آمـيـن ".

و الآن أقول: إن العبارة التي وضعتُ تحتها خط، عبارةٌ مختلف في ترجمتها. أي أن الأصل اليوناني للعبارة يمكن قراءته على نحو آخر، كما أشارت لذلك الترجمة الفرنسية الحديثة المراجعة للعهد الجديد في حاشيتها فقالت ما نصه:

" On peu traduire aussi: De qui est issue le Christ selon la chair. Que le Dieu qui est au-dessus de toute choses soit beni eternellment. Amen " [9] a

و ترجمته : " نستطيع أن نترجم أيضا (على النحو التالي): و منهم المسيح حسب الجسد. تبارك الله الذي هو فوق كل شيء أبد الدهور. آمـيـن."

في هذه القراءة نلاحظ أن الكلام من عند: و منهم المسيح... ينتهي بعبارة: بحسب الجسد." ثم نقطة. ثم تبدأ جملة مستأنفة جديدة هي: " تبارك الله الذي هو فوق كل شيء.. الخ."، و عليه فالكلام، في هذه القراءة، ليس فيه أي تأليه للمسيح.

هذا و لقد أحسَـنَت الترجمة الإنجليزية العصرية المراجَعة للعهد الجديد، حيث لم تذكر هذه القراءة الثانية في الحاشية، بل جعلتها هي الأصل و هي الترجمة الصحيحة المختارة فترجمت العبارة في المتن كالتالي:

And Christ , as a human being , belongs to “ their race. May God , who rules over all , be praised for ever. Amen“ [10] a

و ترجمته: " و المسيح، ككائن بشري ينتمي لعرقهم. ليتبارك الله الذي يحكم فوق الجميع للأبد. آمين. ".

الشبهة الثانية

قول بولـس: "…. منتظرين الرجاء المبارك و ظهور مجد الله العظيم و مخلصنا يسوع المسيح". رسالته إلى تيطس (2/13) بحسب النسخة البروتستانتية.

الرد على هذه الشبهة:

أولاً: العبارة، حتى في صورتها الحالية، لا تدل على ألوهية المسيح، لأن جملة: " و مخلصنا يسوع المسيح " معطوفة على الله العظيم بواو العطف التي تقتضي المغايرة، و العامل في الجملتين هو المصدر: ظهور، أي أن العبارة معناها كالتالي: منتظرين ظهور مجد الله و ظهور مخلصنا المسيح.

ثم ينبغي أن نلاحظ أن الظهور سيكون لمجد الله لا لذات الله، و لا شك أن ظهور نبي الله و سيادته على العالم هو ظهور لمجد الله في الواقع، كما أننا لو قلنا مثلا: لقد ظهرت رحمة الله وقوته بظهور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لا يعني ذلك أن محمداً هو الله ذاته و العياذ بالله!

و ثانياً: ذكرت حاشية الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية

للعهد الجديد، بإشراف الرهبانية اليسوعية تعليقا على هذه الفقرة، ما يلي:

" منهم من يترجم: مجد إلـهنا العظيم. و مجد مخلصنا يسوع المسيح ". ثم حاول المحشي أن يثبت رجحان الترجمة الأولى التي في المتن و التي تؤكد حسب زعمه لاهوت المسيح. و كلا الادعائين خطأ. أما كون الترجمة الأولى تؤكد لاهوت المسيح فقد تبين بطلانه، و أما الدليل على عدم رجحان الترجمة الأولى فهو أن كل ما ذكرناه في الفصل السابق من نصوص عن بولـس يؤكد فيها تفرد الآب بالألوهية و أنه إلـه المسيح و خالقه، و أن المسيح عبده الطائع الخاضع لسلطانه، يوجب حمل كل عبارة لبولـس تحتمل معنيين (أحدهما يجعل المسيح هو الله و الآخر لا يجعله الله) على المعنى الذي لا يؤله المسيح لكي يبقى كلام بولـس متسقا مع بعضه منسجما غير متناقض. و بتعبير آخر، إن نصوص بولـس الصريحة المحكمة في نفي إلهية المسيح و إفراد الله الآب بالإلـهية، تحكم على النصوص المتشابهة، فتفسر المعنى المراد منها، و هذا ما يعبر عنه في علم التفسير الإسلامي بـرد المتشابه إلى المحكم.

هذا و من المفيد أن نذكر أن الترجمة الإنجليزية العصرية المراجعة للعهد الجديد أوردت في حاشية هذا النص تعليقا يبين هذا الاحتمال الثاني لترجمة العبارة من الأصل اليوناني فقالت:

" Or: (The Glory of) the Great God and our Savior Jesus Christ "

أي: " أو (مجد) الله العظيم و (مجد) مخلصنا يسوع المسيح ".

الشبهة الثالثة

قول بولـس: " الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح، تراءى للملائكة، كُرِزَ به بين الأمم، أومِنَ به في العالم، رُ فِـع في المجد ". رسالته إلى تيموثاوس (3/ 16) كما في الترجمة التقليدية البروتستانتية.

الرد على هذه الشبهة:

إن ذكر لفظ الجلالة " الله " كفاعل لفعل " ظهر "، إنما هو اجـتهاد و تصرف من المترجم و لا وجود لهذه اللفظة في الأصل اليوناني بل فعل " ظهر " فيها مذكور بدون فاعل، أي مذكور بصيغة المبني للمجهول " أُظْـهِـرَ "، كما هو حال سائر أفعال الفقرة: كُـرِزَ به بين الأمم، أومنَ به في العالم...

و قد اتبعت الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية الأصل اليوناني بدقة فذكرت فعل ظهر بصيغة المبني للمجهول، و لم تأت بلفظ الجلالة هنا أصلا، و إليكم ما ذكرته بعين حروفه:

" و لا خلاف أن سر التقوى عظيم. قد أُظهِرَ في الجسد، و أُعـلِن بارا في الروح و تراءى للملائكة و بُشِّر به عند الوثنيين و أومن به في العالم، و رُفِـعَ في المجد ".

و نفس الأمر في الترجمتين الحديثتين المراجعتين الفرنســية و الإنـجليزية. و بهذا يبطل استدلالهم بالآية على إلـهية المسيح، لأن الذي ظهر في الجسد هو المسيح، الذي كان كائنا روحيا فيما سبق ـ إذ هو أول خليقة الله حسب

عقيدة بولـس ـ و ليس الله.

بالإضافة إلى أن بعض الجمل اللاحقة تؤكد أن الذي ظهر ليس الله و لا هو بإلـه، كعبارة: أُعلِنَ بارّاً في الروح، أو عبارة رُفِعَ في المجد.

حيث أنه من البديهي أن الله تعالى الممجد في علاه القدوس أزلا و أبدا، لا يمكن أن يأتي أحد و يرفعه في المجد أو يعلنه بارّاً في الروح !! إنما هذا شأن العباد المقربين و الرسل المكرمين و حسب.

الشبهة الرابعة

وصف بولس للمسيح بأنه " صورة الله ".

الرد على هذه الشبهة :

قبل تفنيد هذه الشبهة، يجدر بنا أن نذكر الفقرات التي جاء تعبير بولس هذا ضمنها. فالأول جاء في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (4 / 3 ـ 4) كما يلي :

" فإذا كانت بشارتنا محجوبة، فهي محجوبة عن السائرين في طريق الهلاك. (محجوبة) عن غير المؤمنين، الذين أعمى أبصارهم إلـه هذه الدنيا لئلا يبصروا نور بشارة مجد المسيح و هو صورة الله ".

و الموضع الثاني جاء في رسالته إلى أهل فيليبي (2 / 5 ـ 8) :

" فليكن فيما بينكم الشعور الذي هو أيضا في المسيح

يسوع، فمع أنه في صورة الله لم يعد مساواته لله غنيمة بل تجرد من ذاته متخذا صورة العبد و صار مثال البشر و ظهر في هيئة إنسان فوضع نفسه و أطاع حتى الموت موت الصليب " [11].

و الآن نقول: إن وصف بولس للمسيح بأنه " صورة الله "، ليس فيه أي تأليه للمسيح، لأن هذه الصفة تكررت بعينها مرات عديدة في الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد، و وصف بها الإنسان، بشكل عام و الرجل بشكل عام أيضا، و يفهم من تتبع موارد استعمالها في الكتاب المقدس أنها تعني نوع من التشابه العام أو العلاقة و الترابط بين الإنسان ككل و الله .

فقد جاء في سفر التكوين من التوراة الحالية: " و قال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا و ليتسلط على أسماك البحر و طيور السماء و البهائم و جميع وحوش الأرض و جميع الحيوانات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكرا و أنثى... " تكوين: 1 / 26 ـ 27.

يقول مفسرو التوراة أن المقصود بكون الإنسان خلق على صورة الله هو ما يتميز به الإنسان عن الجمادات و النباتات و الحيوانات بالعقل الكامل و القدرة على النطق و التعبير عما يريد و بالإرادة و الاختيار الحر و بالاستطاعة و القدرة، فضلا عن السمع و البصر و الحياة و الإدراك و العلم... الخ، أي أن هناك تشابه عام بين صورة الله في صفاته و الإنسان، لذا قال سبحانه أنه خلق الإنسان على صورته [12] ، و بتعبير آخر أن الله شاء أن يخلق مخلوقا تنعكس و تتجلى فيه ومضة من صفاته تعالى من العقل و الإرادة و الاختيار و الحياة و العلم و المعرفة و الكلام و القدرة و السمع و البصر... الخ.

و لما كانت صفات الكمال، من قوة و قدرة و عقل و حكمة، موجودة في الرجل أكثر من المرأة، لذا نجد بولس يعبر عن الرجل ـ كل رجل ـ بأنه " صورة الله " فيقول مثلا في رسالته الأولى إلى أهل قورنتس (11 / 7):

" و أما الرجل فما عليه أن يغطي رأسه لأنه صورة الله و مجده "

و طبعا كلما ترقى الإنسان في الكمالات و تخلق أكثر بأخلاق الله، كلما صار أكثر عكسا لصفات الله، و كلما تجلت فيه أسماء الله و صفاته الحسنى كالعلم و القدرة و العزة و العدل و الحلم و الكرم و الرحمة و الرأفة و الصبر و القداسة.... أكثر، لذا نجد بولس يتكلم عن نفسه و عن سائر الأولياء و القديسين فيقول:

" و نحن جميعا نعكس صورة مجد الرب بوجوه " مكشوفة " كما في مرآة، فتتحول إلى تلك الصورة و نزداد مجدا على مجد و هذا من فضل الرب الذي هو روح " قورنتس: 3 / 18.

كما يقول في موضع آخر موصيا المؤمنين بالتخلُّق بأخلاق الله و العيش حياة مسيحية كاملة:

" أما الآن فألقوا عنكم أنتم أيضا كل ما فيه غضب و سخط و خبث و شتيمة. لا تنطقوا بقبيح الكلام و لا يكذب بعضكم بعضا، فقد خلعتم الإنسان القديم و خلعتم معه أعماله، و لبستم الإنسان الجديد ذاك الذي يجدد على صورة خالقه ليصل إلى المعرفة " رسالة بولس إلى أهل قولسي: 3 / 8 ـ 10. فإذا كانت صفة " صورة الله" تقتضي الألوهية، فبمقتضى كلام بولس نفسه ينبغي أن يكون جميع القديسين

بل جميع الرجال آلهة! و هذا ما لا يتفوه به عاقل و لا يشك في بطلانه أحد.

و لا شك أن الأنبياء هم المظهر الأتم و الأكمل لأسماء الله الحسنى و صفات جلاله و جماله، فمن هذا المنطلق يعبر بولس عن المسيح بعبارة " صورة الله ".

أما قول بولس عن المسيح، في الشاهد الثاني: " فمع أنه في صورة الله، لم يعد مساواته لله غنيمة، بل تجرد من ذاته متخذا صورة العبد و صار على مثال البشر و ظهر في هيئة إنسان... الخ "، فقد يظن البعض أن فيه تصريحاً بألوهيته لأنه صرح بمساواته لله، و بأنه تجسّد و أخذ صورة العبد و لبس لباس البشر، فصرح بالتجسّد.

فنقول: إن قوله " مساواته لله " ليست إلا تعبيرا آخر عن عبارته " أنه في صورة الله " و التي عرفنا أن المقصود منها أنه لما كان الإنســان الكـامـل مجـلى و صورة تنعكس فيها صفات الحق جـلَّ و علا من عقل كامل و علم و إرادة و اختيار و قدرة و عدل و حكمة، و طهر و قداسة، و حب و رحمة و رأفة..... الخ، لذا عبر عنه بأنه صورة الله، و مماثل لله، فيقول بولس أن المسيح لم يستغل هذا التناظر و التساوي (الصفاتي الصوري) مع الله، لكي يفتخر و يتكبر و لا يخضع لله و يرى أنه صار على مستوى الله، كلا و حاشا، و لعله في هذا يلمِّح إلى آدم الذي ـ حسبما تنقل التوراة التي تشكل خلفية فكر بولس باعتباره كان من أحبار اليهود ـ حاول أن يستغل قدرته و إرادته الحرة للأكل من الشجرة المحرمة ليكون مساويا لله في علمه و أبديته، حيث أن الشجرة ـ حسب نقل تلك التوراة ـ كانت شجرة معرفة الخير و الشر و شجرة الخلد و الملك الذي لا يبلى و لا يفنى، أما المسيح فعلى العكس اختار التواضع و الطاعة

لمشيئة أبيه و وضع نفسه و استسلم للموت ـ على حد قول بولس ـ .

و أما قوله عن المسيح أنه صار على مثال البشر و ظهر بهيئة إنسان، فيعود لفكرة بولس عن المسيح التي سبق و شرحناها، و هي أنه يرى في المسيح أول (أو بتعبيره: بكر) خليقة الله، فكان كائنا روحيا قبل خلق العالم و به و فيه خلق الله سائر الأشياء، فليس في تجسده أي إشارة للألوهية أو دلالة عليها.

و لا يختلف تجسده عن تجسد جبريل الأمين لما ظهر لمريم أو تجسد الملائكة الثلاثة الذين زاروا إبراهيم عليه السلام، إذ من البديهي أن التجسد بحد ذاته لا يعني أكثر من ظهور كائن روحي بمظهر جسدي إنساني أما أن هذا الكائن الروحي كان قبل تجسده إلـها أو غير إلـه، فهذا يحتاج لدليل آخر.

هذا أولا، و ثانيا: إذا نظرنا إلى تتمة كلام بولس، ظهر لنا بكل وضوح انتفاء قصد إلـهية المسيح و استحالة كون المسيح هو الله في نظر بولس، حيث قال: " فوضع نفسه و أطاع حتى الموت موت الصليب، لذلك رفعه الله إلى العلى و وهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء..." فيليبي: 2 / 8 ـ 9.

فعبارات أنه مات ثم رفعه الله إلى العلا و وهب له الاسم... تصيح بأعلى صوتها أن المسيح ليس الله بل عبد لله، محتاج له، و ليس بإلـه، لأن الإلـه لا يموت و لا يحتاج لمن يرفعه للعلا، و لا لمن يهبه أي شيء !

الشبهة الخامسة

قول بولس عن المسيح: " فقد حسن لدى الله أن يحل به الكمال كله "، ثم قوله: " فـفـيه (أي في المسيح) يحل جميع كمال الألوهية حلولا جسديا " [13]

الرد على هذه الشبهة:

إذا رجعنا لرسائل بولس، عرفنا أن مقصوده من حلول الكمال الإلـهي في شخص ما، ليس معناه أبدا حلول الذات الإلـهية فيه أو اتحادها به و تحول الشخص لله!! بل هو تعبير عن المعية الإلـهية و حصول التأييد و التوفيق الإلـهي بحيث يكون الشخص مجلى تنعكس فيه صفات الله من علم و حكمة و استقامة و قداسة و عدل و رحمة و قدرة خارقة و و.... و الدليل على ذلك أن بولس يرى أن روح الله و كمال الله حال في كل المؤمنين الصادقين و القديسين البارين، حيث يقول في رسالته إلى أهل رومية:

" أما أنتم فلستم تحيون بالجسد، بل في الروح لأن روح الله حال فيكم "

و يقول أيضا في رسالته إلى أهل أفسس:

"... و تعرفوا محبة المسيح التي تفوق كل معرفة، فتمتلئوا بكل ما في الله من كمال "

و من الواضح أن بولـس لا يدعو مسيحيي أفسس أن يصبحوا الله و لا بأن ذات الإلـه حالة في المؤمنين من أهل رومية! و إنما يريد بعباراته: " حلول الكمال الإلـهي " أو " حل به كمال الله " أو " روح الله حال فيه " التعبير عن التأييد الإلـهي للمؤمنين و أن روح الله بمعنى المحبة و القداسة و الأناة و الشفقة و العدل و الحكمة و... الكمالات

الإلهية صارت إليهم و معهم و بهم، فصاروا مع الله منقطعين عن أنفسهم و ذواتهم و أهوائهم و عن سائر الأغيار، فانين بكليتهم في الله و إرادته.

و لعل هذا النمط من التعبير يشابه ماورد في الإسلام، في الحديث القدسي الشريف الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم): " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب و ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه و ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصره به و يده التي يبطش بها و رجله التي يمشي بها... الحديث " [14]

الشبهة السادسة

تعبير بولس عن المسيح بـ "ابن الله"

الرد على هذه الشبهة:

لعل ما ذكرناه سابقا في الفصل الماضي من بيان مقصود لغة الكتاب المقدس من عبارة ابن الله يكفي لتفنيد هذه الشبهة [15] ، حيث يستخدم بولس نفس لغة و تعبيرات الكتاب المقدس، و لكن لمزيد من الإيضاح نورد هنا أقوال لبولس نفسه يعبر فيها عن المؤمنين البارين القديسين بأنهم أبناء الله، فقد قال مثلا في رسالته إلى أهل رومية (8 / 13 ـ 17):

"... لأنكم إذا حييتم حياة الجسد تموتون أما إذا أمتم بالروح

أعمال الجسد فستحيون. إن الذين ينقادون لروح الله يكونون أبناء الله حقا. لم تتلقوا روح عبودية لتعودوا إلى الخوف بل روح تَـبَـنٍّ به ننادي: أبا، يا أبـتِ ! و هذا الروح نفسه يشهد مع أرواحنا بأننا أبناء الله. فإذا كنا أبناء الله فنحن ورثة: ورثة الله و شركاء المسيح في الميراث لأننا إذا شاركناه في آلامه نشاركه في مجده أيضا ".

و قال في رسالته إلى أهل غلاطية (3 / 26):

" لأنكم جميعا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع ".

فالتعبير عن الشخص بابن الله إشارة لمرتبة روحية لا لطبيعة تكوينية. ولو كان مقصود بولس من بنوة المسيح لله شيء آخر، أي طبيعة تكوينية، لما أجاز مشاركة المؤمنين الصالحين للمسيح فيها حين قال: و شركاء المسيح في الميراث، إذ من المسلَّم به قطعا أن بولس لا يزعم أن الصالحين يصيرون بصلاحهم آلهة!!، فلا يبقى إلا المشاركة في المرتبة الروحية و الدنو من الله و الاختصاص التام به حتى يكونوا فعلا كمنزلة الابن من أبيه.

الشبهة السابعة

تعبير بولس عن المسيح بـِ " الربّ "

الرد على هذه الشبهة :

كلمة " الرب " هي عبارة بولس المفضلة عندما يشير إلى المسيح عليه السلام، و هو يكررها في رسائله كثيرا، خاصة في افتتاحيات رسائله حين يقول مثلا: "عليكم النعمة و

السلام من لدن أبينا و الرب يسوع المسيح، تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح... " (2 قورنتس: 1/2 ـ3)، أو قوله: " و يشهد كل لسان أن يسوع المسيح هو الرب " (فيليبي: 2/1)... الخ.

و الحقيقة أن وصف المسيح بالربّ أو بربِّنا، لا يقتصر على بولس بل يقول به جميع أصحاب رسائل العهد الجديد الآخرين أيضا، أي القديسون يوحنا و بطرس، و يهوذا و يعقوب أخوا المسيح عليه السلام لأمه.

و كان هذا مما صدمني جدا لما طالعت العهد الجديد لأول مرة، إذ كنت أتصور أن مرادهم من كلمة الرب ما نعهده نحن المسلمون منها: أي رب العالمين و بارئ الخلائق أجمعين الخالق الرازق سبحانه و تعالى... فكنت أستغرب وأستهجن وصف المسيح الذي هو عبدٌ لله تعالى و محتاج لمدده، بصفة الرب، أي جعله خالقنا و رازقنا مع أنه هو نفسه مخلوق و مرزوق من الله!!

إلا أني لما تبحرت بمطالعة العهد الجديد و درست مدلولات بعض ألفاظه، خاصة لفظة الرب و مشتقاتها، دراسة مقارنة دقيقة، تأكدت من أن كتَّاب و مؤلفي العهد الجديد لم يكونوا يعنون بكلمة الرب عند إطلاقها على المسيح معنى الله الخالق الرازق أبدا، بل يعنون بها معنى المعلم و السيد المطاع أمره، فكلمة الرب كانت وصفا لمنزلة المسيح الرسالية النبوية التعليمية و مقامه ومنصبه الذي أقامه الله فيه، لا وصفا لطبيعته أو تحديدا لجوهر ذاته.

و قد سبق و أشرت، في الفصلين الماضيين، لعض الشواهد من الأناجيل التي تدل على ذلك، و فيما يلي إعادة سريعة لها :

(1) فقد جاء في إنجيل يوحنا أن اليهود كانوا يخاطبون النبي يحيى عليه السلام بعبارة :

"رابِّـي " (يوحنا: 3/26) ، و من الواضح أن أحدا لم يقصد ألوهية يحيى عليه السلام .

(2) كما جاء في نفس الإنجيل (يوحنا: 1/38) أيضا ما نصه:

" فقالا (للمسيح): ربِّـي!، الذي تفسيره يا معلم، أين تمكث؟ "

[ملاحظة: جملة: (الذي تفسيره يا معلم) المعترضة، هي ليوحنا نفسه مؤلف الإنجيل و ليست لأحد من الشراح، فهي من متن الإنجيل نفسه وليست مضافة] .

(3) و جاء في إنجيل يوحنا كذلك (20 / 16) :

" قال لها: يا مريم! فالتفتت إليه و قالت له ربوني الذي تفسيره: يا معلم ".

(4) و جاء أيضا في إنجيل يوحنا (13/ 13 ـ 14)أن المسيح قال لتلامذته:

" أنتم تدعوني " المعـلِّـم و الـرب " و أصبتم فيما تقولون فهكذا أنا. فإذا كنت أنا الرب و المعلم قد غسلت أقدامكم فيجب عليكم أنتم أيضا أن يغسل بعضكم أقدام بعض ".

لكن النسخة التقليدية القديمة (البروتستانتية)للعهد الجديد ترجمت نفس تلك الآيات كالتالي:

" أنتم تدعوني معلماً و ســيـداً و حسنا تقولون لأني أنا

كذلك، فإن كنت وأنا الســيـد و المعلم غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أقدام بعض"

إذاً ما ترجم بالسـيِّـد في الترجمة التقليدية القديمة، ترجم بالـربّ في الترجمة الحديثة، أي اختيرت لفظة الرب بدلا من السيد لترجمة الأصل اليوناني، مما يؤكد أن المقصود بالأصل من كلمة الرب هو معنى السيد و أنهما مترادفان.

(5) و جاء في إنجيل لوقا (20 / 41 ـ 44) أن المسيح عليه السلام قال لليهود:

" كيف يقال للمسيح أنه ابن داود و داود نفسه يقول في كتاب المزامير: "قال الرب لـربـِّـي: اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك"؟ فداود نفسه يدعو المسيح ربا، فكيف يكون المسيح ابنه؟ ".

في هذا النص يستند المسيح عليه السلام لآية في مزامير داود (الزبور) يعتبرها بشارة عنه، فإذا رجعنا لمزامير داود في العهد القديم وجدنا أن البشارة هي الآية الأولى من المزمور رقم 110، و لفظها ـ كما في الترجمة الكاثوليكية الحديثة ـ:

" قال الرب لسـيّدي اجلس عن يميني حتىأجعل أعداءك موطئا لقدميك" العهد القديم / ص 1269.

فما عبر عنه المسيح بلفظة ربي هو في الحقيقة بمعنى سيدي و لا حرج فالمقصود واحد.

لذلك نجد أن الترجمات العربية المختلفة للعهد الجديد، خاصة القديمة منها كانت تستخدم لفظة السيد في مكان لفظة الرب، و لفظة المعلم في مكان لفظة رابِّـي. و فيما

يلي أمثلة مقارنة تدل على ما نقول، أخذناها من ثلاث ترجمات مختلفة للعهد الجديد هي التالية (من الأقدم إلى الأحدث):

· الترجمة البروتستانتية القديمة التي قامت بها: جمعية التوراة البريطانية و الأجنبية، طبع كامبريدج، بريطانيا. و رمزتُ لها بالترجمة البريطانية البروتستانتية.

· الترجمة المسماة: كتاب الأناجيل المقدسة. طبع المطبعة المرقسية الكاثوليكية بمصر في عهد رئاسة الحبر الجليل الأنبا كيرلِس الثاني بطريرك المدينة العظمى الإسكندرية و سائر الكرازة المرقسية، سنة 1902 مسيحية. و رمزتُ لها بالترجمة المصرية الكاثوليكية.

· ترجمة الكتاب المقدس الحديثة التي قامت بها الرهبانية اليسوعية في بيروت عام 1989 و نشرتها دار المشرق. و رمزتُ لها بالترجمة البيروتية اليسوعية.

موضع الشاهد	الترجمة البريطانية البروتستانتية	الترجمة المصرية الكاثوليكية	الترجمة البيروتية اليسوعية
إنجيل يوحنا: 1/ 49	أجاب نثنائيل و قال له: يا معلم! أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل.	أجاب ناثانائيل و قال له: رابي! أنت هو ابن الله أنت ملك إسرائيل.	أجابه نتنائيل: رابي! أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.
إنجيل يوحنا: 3/ 1 ـ 2	هذا جاء إلى يسوع ليلا و قال له: يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلما لأنه	فجاء إلى يسوع ليلا و قال له: رابي ، نحن نعلم أنك أتيت من الله معلما لأنه	فجاء إلى يسوع ليلا و قال له: رابي ، نعلم أنك جئت من لدن الله معلما فما من

	ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه.	ليس يقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل ما لم يكن الله معه.	أحد يستطيع أن يأتي بتلك الآيات التي تأتي بها إن لم يكن الله معه.
إنجيل يوحنا: 4 / 11.	قالت له: يا سيد ! لا دلو لك و البئر عميقة فمن أين لك الماء الحي؟	قالت له الامرأة: يا سيدي ! إنه لا مستقى لك و البئر عميق فمن أين لك الماء الحي؟	قالت له المرأة: يا رب ! لا دلو عندك و البئر عميقة، فمن أين لك الماء الحي؟
إنجيل يوحنا: 4 / 15.	قالت له المرأة: يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش...	قالت له الامرأة: يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش...	قالت له المرأة: يا ربّ ، أعطني هذا الماء لكي لا أعطش..
إنجيل يوحنا:4 / 49.	فقال له خادم الملك: يا سيد! انزل قبل أن يموت ابني. فقال له يسوع: اذهب ابنك حي !	فقال له الرئيس: يا رب ! انزل قبل أن يموت فتاي. فقال له يسوع: امض فابنك حي!	فقال له عامل الملك: يا رب ! انزل قبل أن يموت ولدي. فقال له يسوع: اذهب إن ابنك حي!
إنجيل يوحنا: 5/7	أجابه المريض: " يا سيد ، ليس لي إنسان يلقيني في البِرْكة متى تحرك الماء	أجاب المريض وقال: " يا سيد ليس لي إنسان لكي إذا تحرك الماء يلقيني في البِرْكة	أجابه العليل: " يا رب ، ليس ليمن يغطني في البِرْكة عندما يفور الماء ..
إنجيل يوحنا: 6 /	فقالوا له: " يا سيد ! أعطنا	فقالوا له: " يا سيد ! أعطنا	فقالوا له: " يا رب ! أعطنا هذا

34.	في كل حين هـذا الخبز.	هــذا الخــبز في كل حين.	الخبز دائما أبداً.
إنجيل يوحنا: 13 / 36.	قال له سمعان بطرس: يا سيد إلى أين تذهب؟ قال يسوع: حيث أذهب لا تقدر أن تتبعني...	قـال له سـمعان بطرس: إلى أين تـــذهب يا رب؟ أجابه يســـوع: حيث أذهب أنا لا تقـــــدر أن تتبعني...	فقـال له سـمعان بطـــرس: يا رب إلى أين تـــذهب؟ أجاب يسـوع: إلى حيث أنا ذاهب لا تســتطيعُ الآن أن تتبعني...
إنجيل يوحنا: 14 / 5.	قـال له تومـا: يا سـيـد ! لســـنا نعلم أين تـــذهب فكيف نعـــرف الطريق؟	قـال له تومـا: يا رب ! لســـنا نعرف أين تذهب فكيف نقـــدر أن نعرف الطريق؟	قــال له تومــا: يا رب ! إننا لا نعرف إلى أين تـــذهب فكيف نعـــرف الطريق؟
إنجيل يوحنا: 14 / 8.	فقال له فيليبـس: يا سـيـد ! أرنا الآب و كفانا!	قال له فيليبس: يا رب ! أرنا الآب و حسـبنا!	قال له فيليبس: يا رب ! أرنا الآب و حسـبنا!

وأكتفي بهذه الأمثلة، و الحقيقة أن هذا نجده في كل مواضع استخدام لفظة الرب في الترجمات المختلفة و القديمة بشكل خاص، و أعتقد أن ما ذكر يكفي لليقين بأن مراد كاتبي الأناجيل و رسائل العهد الجديد، و منهم بولس، من لفظة الرب، ليس إلا معنى السيد أو المعلم المُطاع أمره.

ومن ناحية أخرى إذا رجعنا إلى القاموس العبري ـ العربي] 16[نرى أن لفظة الرب العبرية تعني: [[حاخام، معلم، وزير، ضابط، سيد]].

فإذا عرفنا أن اللغة العبرية كانت هي لغة الكتاب المقدس الأصلية (للعهد القديم) الذي كان مرجع مؤلفي العهد الجديد، و عرفنا أن السيد المسيح عليه السلام كان بالنسبة إليهم: المعلم الأكبر و الحاخام الأعظم، و السيد الذي تعلو سيادته و سلطانه الروحي كل سيادة في الأرض، عرفنا لماذا كانوا يطلقون عليه لفظ " الرب " و ماذا كانوا يعنون بها.

و من الجدير ذكره هنا، و هو ما قد يفاجئ القارئ، أنه حتى في اللغة العربية، قد تطلق لفظة الرب، المطلقة من غير أي إضافة، على المـلِك و السيد، كما ذكر صاحب لسان العرب حيث قال أن أهل الجاهلية يسمون الملك: الرب، و أنه كثيرا ما وردت كلمة الرب مطلقةً، في أشعارهم، على معنى غير الله تعالى [17] .

كما جاء في لسان العرب: " الرب: يطلق في اللغة على المالك، و السيد، و المدبر، و المربي، و القيِّم، و المنعم... و (عن) ابن الأنباري: السيد المطاع، قال تعالى: فيسقي ربه خمرا، أي سيده، و يكون الرب المصلح، ربَّ الشيءَ إذا أصلحه " [18] .

و قد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى عدة مرات، من ذلك الآيات التالية :

1. { قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون } يوسف / 23.

2. { يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا... } يوسف / 41.

3. { و قال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه

الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين } يوسف / 42.

4. { فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن } يوسف / 50.

5. و كذلك وردت بهذا المعني في سورة التوبة في الآية: { اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله و المسيح بن مريم و ما أمروا إلا ليعبدوا إلـها واحدا لا إلـه إلا هو سبحانه و تعالى عما يشركون } التوبة / 31.

فمن الواضح أنهم لم يتخذوا أحبارهم آلهة خالقين رازقين ! إنما اتخذوهم سادة و أرباب استسلموا لسلطتهم و أطاعوهم طاعة عمياء في كل شيء حتى في تحريم الحلال و تحليل الحرام، و تشريع العقائد الجديدة غير المنزلة،كما ورد تفسيرها في الحديث الشريف عن عدي بن حاتم ـ و كان نصرانيا فأسلم ـ قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، لما سمعه يتلو هذه الآية: " إن النصارى لم يعبدوا أحبارهم و رهبانهم! " فأجابه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم): " بلى إنهم حرموا عليهم الحلال و أحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فتلك عبادتهم إياهم " [19] .

6. و في هذا المعنى أيضا قوله تعالى: { قل يا أهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون } آل عمران /64.

و لا شك أنه ليس المقصود أن لا نتخذ بعضنا بعضا آلهة خالقين رازقين، بل المقصود أن لا نتخذ بعضنا بعضا سادة طغاة متسلطين نركع و نسجد لهم و نطيعهم طاعة عمياء حتى في تحليل حرام الله أو تحريم حلاله أو تقرير عقائد

إيمانية غيبية ما أنزل الله بها من سلطان، كما فعل فريق من النصارى في حق الباباوات.

كل هذه الأمثلة أوردتها للتأكيد على أن لفظة " الرب " لا ينحصر معناها في الله تعالى الخالق الرازق، بل كثيرا ما تأتي بمعنى المالك الآمر و السيد المطاع. و هذا المعنى الأخير هو المراد في لغة العهد الجديد و لغة التلاميذ عندما يطلق على المسيح و هو الذي كان يعنيه بولس من لفظة الرب عندما يطلقها على السيد و المعلم الأكبر المسيح عليه السلام، فليس في هذه اللفظة أي دليل على ألوهيته.

و بهذا نكون قد فندنا جميع الشبهات، من أقوال بولس، التي يستندون إليها كنصوص دالة ـ بزعمهم ـ على إلـهية المسيح.

و بقيت عبارات يستندون إليها من مقدمة الرسالة المعروفة باسم الرسالة إلى العبرانيين، و هي أيضا لا تدل على الألوهية، و قد أعرضت عن مناقشتها لأن الرسالة من الأساس لا يُعْرَف على وجه التحديد من هو كاتبها، فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي لمناقشة أقوال لا نعرف قائلها و لا تقوم حجية بها، إذ الحجية تقوم بكلام الله و كلام رسوله لا بكلامٍ لا يُعْرَف من قائله؟! و مجرد تلقي الكنيسة للرسالة بالقبول و عدها لها من الرسائل القانونية لا يغني شيئا عند ذوي التجرد و الإنصاف، ففي الدين، بل في أخطر مسائله، لا بد من القطع و اليقين و لا يكتفى بالظن و التخمين و الله و لي المؤمنين.

ب ـ نفي إلـهية المسيح في رسائل يوحنا :

ليوحنا، مؤلف الإنجيل الرابع، ثلاث رسائل صغيرة في كتاب

العهد الجديد كما له في آخر العهد الجديد رؤيا كشفية رمزية اعتبرت سفرا إلهاميا كذلك فضمت للأسفار القانونية للعهد الجديد.

إن الإنجيل الرابع الذي ألفه يوحنا يختلف عن الأناجيل الثلاثة المتشابهة التي قبله اختلافا بينا، و هو أكثر حرصا على إضفاء هالة ألوهية على السيد المسيح عليه السلام، و إن كان صاحبه لا يدعي و لا يقول أبدا بشكل محدد أن المسيح هو الله، و لذلك فإن أغلب النصوص المتشابهة التي يستند إليها و يتمسك بها المؤلهون للمسيح مأخوذة من إنجيل يوحنا هذا [20] .

فمن هو يوحنا مؤلف الإنجيل الرابع و رسائل و رؤيا يوحنا ؟؟

سؤال اختلفت الأوساط المسيحية في الإجابة عنه منذ القديم. فالكنيسة التقليدية اعتبرت ـ منذ القرن الثاني للميلاد ـ أن يوحنا هذا، هو نفس " يوحنا بن زبدي " تلميذ المسيح المقرب و أحد الحواريين الاثني عشر. لكن دوائر مسيحية قديمة أيضا ـ و على رأسها الكاهن كايوس ـ شككت في هذا الأمر [21] .

و قد استمر هذا التشكك في بعض الأوساط المسيحية الضئيلة في كل قرن من قرون تاريخ المسيحية و حتى عصر التنوير. و في القرنين الأخيرين طرحت مسألة التحقيق في هوية يوحنا هذا على بساط البحث، و كانت النتيجة التي توصلت إليها غالبية المفكرين و النقاد المسيحيين هي القطع بأن مؤلف الإنجيل الرابع ـ و الذي هو نفسه مؤلف الرسائل الثلاث باسم رسائل يوحنا و الرؤيا الكشفية الأخروية التي في آخر العهد الجديد أيضا ـ ليس الحواري " يوحنا بن زبدي " بل يوحنا آخر متأخر لم يتتلمذ مباشرة على المسيح عليه

السلام بل هو مسيحي من تلاميذ المدرسة الإسكندرية الفلسفية.

و لو أردنا أن نذكر هنا آراء أولـئك النقاد و الأدلة التي جعلتهم يذهبون إلى هذا الرأي لشط بنا القلم و خرجنا عن موضوع الكتاب، لذا نكتفي بهذه الإشارة المختصرة و نحيل الراغب بالتفصيل إلى المراجع التالية:

1 ـ كتاب The Four Gospels تأليف:B.H.Streeter، طبع: New York , 1961 , P. 430 - 456..

2 ـ كتاب: The Gospels , Their Origin & Their Growth تأليف: F. C. Grant، طبع: Faber & Faber , London , 1957، بحث إنجيل يوحنا فيه.

3 ـ مادة John في دائرة المعارف البريطانية، و تقع في الجزء 13 منها.

4 ـ كتاب " ما هي النصرانية؟ " للعلامة الشيخ: محمد تقي العثماني (الباكستاني): الصفحات: 141 ـ 157.(طبع رابطة العالم الإسلامي).

5 ـ كتاب: " إظهار الحق " للعلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: ج 1 / ص 154 ـ 167. (طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية... بتحقيق د. محمد ملكاوي. الرياض).

يبتدأ مؤلف الإنجيل الرابع، إنجيله، بافتتاحية يختص بها دون سائر الأناجيل الثلاثة، و هي افتتاحية يتبادر من ظاهرها النص على إلـهية الكلمة أي المسيح، لذا كانت هذه الافتتاحية أحد أهم مستمسكات المؤلهين للمسيح من كتاب العهد الجديد،

إن لم تكن، أهم مستمسكاتهم على الإطلاق.

و إنما لم أتعرض لها في الفصل الماضي خلال تفنيدي لشبهات المؤلهين لعيسى من الأناجيل، لأن هذه الافتتاحية ليست في الواقع من كلام المسيح أو تعاليم إنجيله، بل هي من كلام يوحنا، لذلك أرجأت الكلام عنها لحين كلامي عن نفي إلـهية المسيح في كلام يوحنا في هذا الفصل.

لكن قبل البدء في مناقشة و تفنيد العبارات التي يستند إليها المؤلهون للمسيح من كلام القديس يوحنا، أبدأ بذكر العبارات الصريحة الواضحة ليوحنا نفسه، التي تؤكد عبودية المسيح لله تعالى و أن الله تعالى إلـه المسيح و خالقه، متبعا نفس الأسلوب الذي اتبعته مع مناقشة عبارات الأناجيل و عبارات بولس.

القسم الأول: أقوال يوحنا الصريحة التي تنفي إلـهية المسيح و تؤكد أنه عبدٌ مخلوقٌ للهِ عز و جل:

(1) أما نصه على أن الله تعالى إلـه المسيح و بالتالي فالمسيح عبد مربوب لله، فقد جاء في رؤيا يوحنا الكشفية (1 / 6) حين قال:

"... و من لدن يسوع المسيح الشاهد الأمين و البكر من بين الأموات و سيد ملوك الأرض، ذاك الذي أحبنا فحلنا من خطايانا بدمه، و جعل منا مملكة من الكهنة لإلــهــه و أبــيـه... "

(2) و أما نصه على أن المسيح مخلوق لله سبحانه وتعالى ، فجاء وضحا في رسالته الأولى (2/ 1) في قوله:

" أكتب إليك ما يقول الأمين (المسيح)، الشاهد الأمين الصادق، بدء خليقة الله... "

(3) و أما أن المسيح يستمد من الله و بالتالي لا يمكن أن يكون إلـهاً لأن الله غني بذاته، فقد جاء ذلك مثلاً في رؤياه الكشفية أيضا (1/ 1) حين يقول:

" هذا ما كشفه يسوع المسيح بعطاء من الله "

(4) و أما عن الغيرية الكاملة و التمايز و الاثنينية بين الله: الآب و المسيح عليه السلام فالأمثلة عليه كثيرة من كلام يوحنا نكتفي بهذا الشاهد من رسالته الأولى(2/1):

" و إن خطئ أحد فهناك شفيع لنا عند الآب و هو يسوع المسيح البار "

(5) ثم إن نفس النصوص الإنجيلية، التي استقيناها في الفصل الأول من إنجيل يوحنا، النافية لإلـهية عيسى و المثبتة لعبوديته، تصلح كذلك للكشف عن عقيدة يوحنا مؤلف ذلك الإنجيل حول عدم إلـهية المسيح إذ من البديهي أن الرجل دوَّن في إنجيله ما يعتقده أو أنه كان يعتقد بما دونه، و نكتفي هنا بإشارة سريعة لثلاث نصوص قاطعة من إنجيل يوحنا:

" قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. و لكن اذهبي إلى أخوتي و قولي لهم: إني أصعد إلى أبي و أبيكم و إلـهي و إلـهكم " إنجيل يوحنا:20 / 17.

" تكلم يسوع بهذا و رفع عينيه نحو السماء و قال: أيها الآب، قد أتت الساعة... و هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت

الإلـه الحقيقي وحدك، و يسوع المسيح الذي أرسلته... " إنجيل يوحنا: 17 / 1 ـ 3.

" فقال لهم يسوع: لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، و لكنكم الآن تطلبون أن تقـتلوني و أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله " إنجيل يوحنا:8/40.

و أعتقد أن ما ذكر أعلاه يكفي ـ لمن تجرد للحق و أنصف و جانب التقليد و التعصب ـ للتأكد من عقيدة يوحنا التوحيدية و أنه لم يعلِّم التثليث و لا أن الله هو المسيح، بل أفرد الله تعالى وحده بالإلـهية، فينبغي أن يبقى هذا بالبال عند مناقشتنا التالية للشبهات التي استندوا إليها من كلام يوحنا.

القسم الثاني: شبهات المؤلهين للمسيح من عبارات يـوحنا و الرد عليها

الشبهة الأولى

افتتاحية يوحنا لإنجيله التي يقول فيها: " في البدء كان الكلمة، و الكلمة كان عند الله، و كان الكلمة ا لله، هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان... و الكلمة صار جسدا و حل بيننا و رأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة و حقّـاً " إنجيل يوحنا: 1 / 1 ـ 3، 14.

الرد على هذه الشبهة:

أولا: أعود و أذكر أن هذا النص ليس من كلام المسيح عليه السلام و لا من كلام أي حواري أو تلميذ مباشر من تلاميذه بل كلام مسيحي تابعي ـ إن صح التعبير ـ و فيلسوف عاش في أواخر القرن الأول و أوائل القرن الثاني فلا يحمل في طياته أية حجة إلـهية ملزمة. أما دعوى أنه كتب إنجيله بإلهام و وحي من الله فلا دليل علها إلا مجرد الظن.

و ثانيا: ما دام قائل هذا الكلام هو يوحنا، و ما دام قد ثبت معنا بالدلائل السابقة أن يوحنا هذا يؤمن بأن الله الآب هو الإلـه الحقيقي وحده و إلـه المسيح و خالقه و مرسله، فلكي يكون كلام يوحنا منسجما مع بعضه، لا بد أن يُفهَم هذا النص أو يُفسَّر على نحو يتسق و ينسجم مع عقيدته التوحيدية تلك، و هناك تفسيران محتملان لهذا النص:

التفسير المعقول الأول: هذه الافتتاحية قرأها كثير من القدماء على نحو فيه اختلاف بسيط في اللفظ، لكن مهم جدا، و قد أورد الغزالي في كتابه " الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل " اللفظ القديم الذي يمثل الترجمة الحرفية للمتن اليوناني الأصلي على النحو التالي:

" في البدء كان الكلمة، و الكلمة كان عند الله، و إلـه هو الكلمة، كان هذا قديما عند الله، كلٌّ به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان... "

فالفرق بين الترجمتين هو في الجملة الثالثة، ففي حين تقول الترجمات الحديثة: " و كان الكلمةَ اللهُ "، تقول الترجمة الحرفية القديمة: " و إلـهٌ هو الكلمة " بتنكير إلـه.

و تذكر الكتب التي تتحدث عن تاريخ العقيدة النصرانية أن آريوس و منكري ألوهية المسيح كانوا يؤكدون على أن الترجمة الحرفية الصحيحة للأصل اليوناني هي " و إلـهٌ هو

الكلمة " [22] .

و المسألة هي أن كلمة " إلـه " في اصطلاح الإنجيل ـ و اصطلاح الكتاب المقدس بشكل عام ـ لا تعني بالضرورة الله، بل تأتي أحيانا على معنى السيد و الرئيس المطاع، مثل كلمة الرب، أو على معنى الملاك العظيم. و سبق و أشرنا لذلك في الفصل الثاني و نذكر هنا مثالين على ما نقول:

(1) جاء في سفر الخروج من التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام :

" قد جعلناك إلـها لفرعون و أخاك هارون رسولك " الخروج: 7 / 1.

(2) و في المزمور الثاني و الثمانين من سفر المزامير قول الله تعالى لداود عليه السلام :

" الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي.. (إلى قوله): أنا قلت إنكم آلهة و بنو العلي كلكم لكن مثل الناس تموتون و كأحد الرؤساء تسقطون " المزامير: 82 / 1، 6 ـ 7.

حيث يتفق مفسروا العهد القديم أن المقصود بالآلـهة و ببني العلي هنا: الرؤساء و القضاة و الملائكة الذين هم أعضاء البلاط الإلـهي ـ إذا صح التعبير ـ، و أن لقب آلهة و أبناء الله، لهم، ليس إلا لقبا تشريفيا لا أكثر، و لا يعني أبدا أنهم شركاء الله تعالى في ذاته و إلـهيته، كيف و من تعاليم التوراة الأساسية وحدانية الله تعالى!

بناء عليه، فعبارة " و إلـه هو الكلمة " معناها: و كائنٌ روحيٌّ

عظيم بل رئيسٌ للكائنات وعظيمٌ مقرب من الله هو الكلمة.

هذا و مما يرجح هذه القراءة و يوجب المصير إلى هذا التفسير، أن الترجمات الحديثة التي تذكر " و كان الكلمة الله " تجعل افتتاحية يوحنا نصا مختل المبنى غير مستقيم المعنى، بل لا معنى له و لا يصح لأن معناها يصبح هكذا:

[في البدء كان الله، و كان الله عند الله! و كان الله هو الله، الله كان في البدء عند الله!!]

و من البديهي أن الشيء لا يكون عند نفسه، فلا يصح أن نقول كان زيد عند زيد !!

أما على التفسير الذي ذكرناه، فإذا صار الإله المُنَـكَّر بمعنى الكائن الروحي العظيم الذي هو غير الله، صح أن نعتبره كان عند الله.

التفسير الممكن الثاني: يرى البعض أن الكلمة هي الأمر الإلـهي " كن فيكون " الذي به يخلق الله ما يشاء من الكائنات، كما جاء في سفر المزامير: " بكلمة الرب صنعت السماوات... إنه قال فكان، و أمر فوجد " المزمور: 33/6، 9.

و تصديق ذلك أننا نجد، في سفر التكوين من التوراة، أن الخلق تم بأوامر و كلمات إلـهية: " و قال الله: ليكن نور، فكان نور..... و قال الله: ليكن في وسط المياه.... فكان كذلك.... الخ " التكوين: 1 / 3، 6.

و قالوا: إن الترجمة القديمة الصحيحة لعبارة " و الكلمة صار جسدا " هي: " و الكلمة صنع جسدا " [23] أي أنه

بالأمر الإلهي تم خلق إنسان بشر. فالكلمة هي الله و لكن الإنسان الذي خلق بها ليس الكلمة، و بالتالي فالمسيح مخلوق بالكلمة و ليس الكلمة ذاتها.

و منهم من يرى أن هناك محذوف تقديره:"و أثر الكلمة صار جسدا" [24] .

و على كل حال فهذه تفسيرات ممكنة و معقولة لهذه الافتتاحية، و لا ندعي أنها صحيحة قطعا، لكن نرى أن المصير لفهم توحيدي للنص واجب، بعد أن عرفنا من عبارات يوحنا السابقة، نفيه كون المسيح الله، و ذلك عندما اعتبره مخلوقا خاضعا لله مستمدا منه و بين أن اللهَ تعالى إلـهُ المسيح و أن الله هو الإلـه الحقيقي وحده.

الشبهة الثانية

قول يوحنا في رسالته الأولى (5/20): " نحن في الحق إذ نحن في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإلـه الحق و الحياة الأبدية. يا بني احذروا الأصنام. "

الرد على هذه الشبهة:

أولاً دعنا نأتي بنص العبارة من أولها، حيث يلخص يوحنا رسالته الأولى بهذه الخاتمة فيقول:

" نحن نعلم أننا من الله و أما العالم فهو كله تحت وطأة الشرير. و نعلم أن ابن الله أتى و أنه أعطانا بصيرة لنعرف بها الحق. نحن في الحق إذ نحن في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإلـه الحق و الحياة الأبدية. يا بني احذروا الأصنام".

فنقول: إن الذين يستشهدون بهذه الفقرة كنص على إلـهية المسيح، يفترضون أن الإشارة بِـ: هذا هو الإله الحق....، تعود لآخر مذكور و هو المسيح، لكن الحقيقة أن هذا مجرد تخمين و احتمال ضعيف، أما الاحتمال الأقوى بل المتعيِّن فهو رجوع الإشارة إلى هاء الضمير في كلمة ابنـه، أي إلى الله تعالى، لأن الكلام من البداية كان عن الله تعالى، و يدل عليه أيضا جملته الأخيرة: يا بَنِـيَّ احذروا الأصنام، أي أنه يقول في آخر رسالته: ليس لنا إلا إله واحد هو الله و أما بقية الآلهة فهي باطلة فاحذروها. و أقصى ما يقال هو أن ما ذكرناه إن لم يكن هو المتعين فهو بالتأكيد محتمل و مجرد احتماله يسقط استدلالهم بالآية لأنه: إذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال.

و ليس ما ذكرناه من عدم تعين رجوع الإشارة للمسيح، شيء انفردنا به لوحدنا، بل هذا ما أشارت إليه شروح الإنجيل، فقد جاء في كتاب " تفسير الكتاب المقدس " عند شرح هذه العبارة ما نصه:

".... ثم يمضي يوحنا فيقول: هذا هو الإلـه الحق و الحياة الأبدية. و مرّة أخرى لا يكون من السهولة تبين ما إذا كان المعنِيّ هو الآب أم الابن؟ غير أنهما من التقارب بحيث يغدو الفارق ضئيلا جداً. بالنسبة إلى أقوام العالم القديم كان هناك آلهة كثيرون. بيد أن يوحنا يرى أنهم كانوا كلهم آلهة باطلة، فلا إلـه إلا إلـه واحد حق و للناس حياة أبدية فيه. " [25] .

الشبهة الثالثة

ما جاء في رؤيا القديس يوحنا الكشفية منسوبا للمسيح قوله: " أنا الألف و الياء، و الأول و الآخر، و البداية و النهاية " الرؤيا: 22 / 13.

الرد على هذه الشبهة:

الحقيقة أن هذه الشبهة واهية للغاية و بطلانها أوضح من الشمس، و ذلك لسببين: أولا أن هذه العبارات: " أنا الألف و الياء... الخ "، التي تكررت في الرؤيا عدة مرات إنما ينقلها الملاك، الذي ظهر ليوحنا في رؤياه، عن قول الله سبحانه وتعالى عن نفسه، لا عن قول المسيح عن نفسه!. نظرة بسيطة لأول مرة جاءت فيها هذه العبارة في أول إصحاح من سفر رؤيا يوحنا هذا توضح ذلك:

" من يوحنا إلى الكنائس السبع في آسية. عليكم النعمة و السلام من لدن الذي هو كائن و كان و سيأتي، و من الأرواح السبعة الماثلة أمام عرشه، و من لدن يسوع الشاهد الأمين و البكر من بين الأموات و سيد ملوك الأرض. لذاك الذي أحبنا فحلنا من خطايانا بدمه، و جعل منا مملكة من الكهنة لإلـهه و أبيه، له المجد و العزة أبد الدهور آمين. ها هو ذا آتٍ في الغمام. ستراه كل عين حتى الذين طعنوه، و تنتحب عليه جميع قبائل الأرض. أجل، آمين. " أنا الألف و الياء " هذا ما يقوله الرب الإلـه، الذي هو كائن و كان و سيأتي، و هو القدير. " رؤيا يوحنا: 1 / 4 ـ 8.

فنلاحظ بوضوح أن قائل أنا الألف و الياء هو: الرب الإلـه الذي هو كائن و كان و سيأتي، و هو غير المسيح، بدليل أنه عطفه عليه في البداية عندما قال: عليكم النعمة و السلام من الذي هو كائن و كان و.. و من الأرواح السبعة... و من لدن يسوع الشاهد...، و العطف يقتضي المغايرة.

و كذلك عندما تتكرر هذه العبارة ينبغي أن تفهم مثل هنا على أن المقصود منها هو الله تعالى.

هذا من جهة و من الجهة الثانية، فإن هذه العبارة حتى لو قلنا أنها للمسيح، فلا تتضمن نصا في تأليهه، لأنه يمكن تفسير عبارته: "أنا الأول و الآخر و البداية و النهاية" بمعنى: أنا أول خلق الله (أو بكر كل خليقة على حد تعبير يوحنا) فبهذا يكون الأول و البداية، و الحاكم يوم الدينونة بأمر الله، فبهذا يكون الآخر و النهاية لعالم الخليقة، و ما دام هذا الاحتمال وارد، فالاستدلال بالعبارة ساقط، كيف و مثل هذه العقيدة الخطيرة تقتضي الأدلة القطعية الصريحة التي لا تحتمل أي معنى آخر.

بهذا أكون قد انتهيت من مناقشة و تفنيد جميع الشبهات الواهية لمن يصرون على تأليه المسيح عليه السلام عبد الله و رسوله، سواء كانت من الأناجيل أو من رسائل التلاميذ القانونية الملحقة بها، و قل جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، و أختتم كتابي هذا بقوله تعالى:

" يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم و لا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه، فآمنوا بالله و رسله و لا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات و ما في الأرض و كفى بالله وكيلا " النساء /171.

تم الفراغ من تحرير هذه السطور يوم الجمعة 25 7 1417 هـ.ق. في مدينة عجمان. و الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير لرحمة الله تعالى و عفوه: سـعـد رسـتم

---

[1] تشبه هذه العقيدة في المسيح، لحد كبير، عقيدة فريق من فلاسفة المسلمين و من الصوفية، و فريق من الشيعة أيضا، في سيدنا محمد رسول الله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) ، حيث يعتبرون أن أول ما فاض عن الله: النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية، و أنه به و فيه و لأجله خلق الله سائر الكائنات، فهو أول خلق الله و السر الساري في كل الوجود، و واسطة وجود كل المخلوقات. و لعل سبب هذا التشابه بين العقيدتين، أن كليهما ناتج عن محاولة المطابقة بين العقائد الدينية و الفلسفة اليونانية، لا سيما الأفلوطينية الحديثة.

[2] يطابق هذا كلمة التوحيد و شعار الإسلام، الذي هو جميع الرسالات السماوية: لا إلـه إلا الله.

[3] توحيد الأفعال ـ مصطلح كلامي إسلامي ـ يقصد به إفراد الله تعالى وحده بالقدرة الذاتية المستقلة على الخلق و الإحياء و الإحداث و الإيجاد و الإمداد و الهداية و الضلال...، فما يحصل في الوجود من خلق و إحداث و رزق و إمداد فهو من فعل الله و خلقه و إيجاده، لا موجد غيره و لا فاعل بالاستقلال سواه، فبيده وحده الخلق و الرزق و النفع و الضر و العطاء و المنع و الهداية و الضلال و حتى أفعال العباد تمت بقوته و إرادته و مدده و مشيئته و إذنه، فلا فاعل و لا مؤثر في الوجود إلا هو أو به أي بالاستناد للاستطاعة التي منحها و المشيئة التي قدرها، و كل هذا متضمن في معنى: لا حول و لا قوة إلا بالله.

[4] يقصد "بالإنسان الباطن " الصفة العقلانية للإنسان،

خلافا " للإنسان الظاهر " الذي يشير إلى جسمه الفاني،و عبارة الإنسان الباطن قريبة جدا لمعنى كلمة قلوبكم التي وردت في كلام بولس في الفقرة التي بعدها [مستفاد من حاشية العهد الجديد باختصار].

و إذا أردنا عبارة مماثلة لذلك في لغة الإسلام أي كلام الله تعالى في القرآن المجيد فهي قوله تعالى مثلا: " إنهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدى و ربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات و الأرض..." الكهف / 14. أو قوله تعالى مثلا: " أولـئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيدهم بروح منه.." الآية، المجادلة / 22. أو قوله عز و جل: "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمـنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم و لله جنود السموات و الأرض و كان الله عليما حكيما " الفتح / 4.

[5] هذا المجاز يستخدم حتى اليوم في العامية و الفصحى، في كثير من اللغات و منها العربية فنقول مثلا: فلان رأس تلك العصابة، أو رأس القوم، بل كلمة الرئيس إنما اشتقت من الرأس.

[6] يماثل هذا، المبدأ الإسلامي: " الرجال قوَّامون على النساء ".

[7] رومية: 1 / 7، و قورنتس الأولى: 1 / 3، و قورنتس الثانية: 1 / 2 ـ 3، و غلاطية: 1 / 3 ـ 4، و فيليبي: 1 / 2 الخ...

[8] الرسالة الأولى لتيموثاوس: 6 / 15 ـ 16. و العبارة أوردتها من النسخة البروتستانتية لأنها أوضح هنا في بيان الشاهد المطلوب.

[9] La Sainte Bible. Traduite d`apres les Textes Originaux Hebreux et Grec. Nouvelle Version Segond Revisee. Alliance Biblique Francaise. P. 1179.

[10] Good News Bible. Today’s English Version. United Bible Societies. 1980. The New Testament. P. 198.

[11] و مثل ذلك جاء في رسالة بولس إلى أهل قولوسي (1/15)، حيث قال عن المسيح " هو صورة الله الذي لا يُـرَى "

[12] ورد في الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خلق الله آدم على صورته ". صحيح البخاري: كتاب الاستئذان / الباب الأول. و لكن أكثر الشراح يرجعون الضمير لآدم أو للإنسان.

[13] الشاهد الأول من رسالة بولس إلى أهل قولوسي: 1 / 19، و الثاني في نفس الرسالة: 2 / 9.

[14] صحيح البخاري: كتاب الرقاق / باب التواضع (ج 7 / ص 190).

[15] راجع الصفحات: من 86 إلى 97 من هذا الكتاب.

[16] تأليف: ي افوجمان، طبع عام 1980، دار الجيل، بيروت.

[17] انظر لسان العرب لابن منظور: مادة ربب: ج 1 / ص 399.

[18] المرجع السابق:، مادة ربب، ج 1 / ص 400.

[19] تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 2 / 362، و قال عن الحديث: رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن جرير (الطبري) من طرق عدة.

[20] راجع الفصل الثاني، الشبهات: 3و 4 و 5 و 6 و 7 و 8 و 11، تجدها كلها من إنجيل يوحنا.

[21] انظر مقدمة إنجيل يوحنا في الترجمة العربية الجديدة المشروحة للكتاب المقدس التي قامت بها الرهبانية اليسوعية في بيروت و نشرتها دار المشرق، 1989. العهد الجديد: ص 287.

[22] في كتابه " مناظرة علنية مع شهود يهوه " يعترف الأب جورج عطية بأن هذه الترجمة هي الترجمة الحرفية للنص اليوناني الأصلي، إلا أنه يصر على أنه لا فرق بين " و إلـها كان الكلمة " و بين "و كان الكلمة الله "خلافا لشهود يهوه الذين يرون بيهما فرقا كبيرا و أن الترجمة الأولى الصحيحة تنفي ألوهية المسيح وتبطل التثليث. انظر ص 127 ـ 129 من الكتاب الذكور (بيروت، منشورات دار النور، 1986).

[23] انظر الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل: ص 151 ـ 152.

[24] مثل هذا الرأي قال به الد.محمد جميل غازي في كتاب " مناظرة بين الإسلام و النصرانية " ص 455.

[25] كتاب " تفسير الكتاب المقدس " تأليف: جماعة من

اللاهوتيين برئاسة الد. فرانسيس دافيد سن، بيروت، دار منشورات النفير، الطبعة الأولى 1988. ج 6 / ص 714.

المراجع

أولا: كتب النصوص المقدسة:

1. القرآن الكريم

2.كتب الحديث النبوي الشريف: الصحيحين و السنن و مسند أحمد و الجامع الصغير للسيوطي.

3. الكتاب المقدس (العهد القديم و العهد الجديد): الطبعات التالية:

1) الطبعة البروتستانتية، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت 1984. (و هذه هي النسخة الأساسية التي اعتمدت عليها)

2) الطبعة البروتستانتية التقليدية القديمة، نشر جمعية التوراة البريطانية و الأجنبية، طبع كامبريدج، بريطانيا العظمى.

3) الترجمة العربية الجديدة الكاثوليكية المشروحة للكتاب المقدس التي قامت بها الرهبانية اليسوعية في بيروت و نشرتها دار المشرق، بيروت 1989.

La Sainte Bible. Traduite d`apres les Textes Originaux Hebreux et (4 Grec. Nouvelle Version Segond Revisee. Alliance Biblique Francaise .Paris, 1978

Good News Bible. Today’s English Version. United Bible Societies. (5 .1980

4. كتاب العهد الجديد: الطبعات التالية:

1) البشرى: ترجمة جديدة للعهد الجديد للغة العربية من اللغات الأصلية، نشر جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، بيروت، 1988.

2)كتاب الأناجيل المقدسة: طبع المطبعة المرقسية الكاثوليكية بمصر، سنة 1902م

ثانيا: بقية المراجع:

1. إظهار الحق: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي الكيرانوي العثماني، تحقيق الدكتور محمد ملكاوي، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد. الرياض.

2. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير.

3. تفسير الكتاب المقدس: جماعة من اللاهوتيين برئاسة الد. فرانسيس دافيد سن، بيروت، دار منشورات النفير، ط 1، 1988.

4. التوحيد و التثليث: العلامة الشيخ محمود جواد البلاغي، طهران.

5. الرد الجميل لإلـهية عيسى بصريح الإنجيل: الإمام أبي حامد الغزالي، بتحقيق الد. محمد الشرقاوي، ط2 القاهرة، 1986.

6. سوسنة سليمان في أصول العقائد و الأديان: نوفل أفندي نوفل، طبع المطبعة الأمريكية في بيروت عام 1922.

7. عيسى يبشِّر بالإسلام: للبروفيسور الهندي الدكتور محمد عطاء الرحيم، و الذي ترجمه إلى العربية الدكتور (الأردني) فهمي الشما.

8. الفارق بين المخلوق و الخالق: العلامة عبد الرحمن الباجه جي زاده. تصحيح و مراجعة عبد المنعم فرج درويش. دبي، 1407 هـ ـ 1987 م

9. القاموس العبري العربي: ي افوجمان، طبع دار الجيل، بيروت، عام 1980.

10.لسان العرب: العلامة ابن منظور الأفريقي.

11.ما هي النصرانية؟: الشيخ محمد تقي عثماني (الباكستاني)، طبع و نشر رابطة العالم الإسلامي.

12.محاضرات في النصرانية: الأستاذ محمد أبو زهرة، القاهرة.

13.مناظرة بين الإسلام و النصرانية: نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد. الرياض.

14.مناظرة علنية مع شهود يهوه: الأب جورج عطية، بيروت، منشورات دار النور، 1986.